[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

مقارنة بين المحجّة البيضاء و إحياء علوم الدّين

الدكتور عبدالكريم سروش

مؤسسة الدّراسات والبحوث الثقافية

تطرق الكاتب في هذه المقالة إلى الحديث عن آراء شخصيتين مهمتين في عالم الاسلام والتشيع، بالبحث في كتابين مهمين لهذين العالمين الكبيرين: «إحياء علوم الدين»، أشهر آثار الغزالي واكثرها تأثيراً من بعض النواحي في فهم العلوم الدينية و «تهذيب الأحياء» أو «المحجة البيضاء في إحياء الاحياء»، وهو اقتباس نقدي لأثر الغزالي الكبير. حيث يعرّف فيه المولى محسن فيض الكاشاني آراءه الشيعية بشكل واضح.

وقد سعى كاتب هذا المقال إلى المقارنة بين الغزالي وفيض من خلال هذين الكتابين، وإن اعتمد احياناً على آثار ومصادر مستندة أخرى. ويلاحظ ان الاتفاق في الرأي بين الغزالي وفيض اكثر من الاختلاف، إلّا ان اختلاف هذين القطبين في بعض المسائل يدعو أهل البحث والتحقيق إلى التأمل.

لقد كان الغزالي اكثر تأثيراً بسلوكه العلمي والعملي من أي فيلسوف ومتكلم وفقيه في تاريخ الاسلام. حيث قام فيض بنقد هذا الأثر العظيم لذلك المؤثر الكبير لتطهير ثوب الاسلام من الخرافات والبدع.

وهو لم يلق بأثر الغزالي كله جانباً ولم يبادر إلى تأليف جديد، بل اصطفى قسماً كبيراً منه ونقله حرفياً وحذف قسماً ومال بالنقد إلى فصول أخرى. والكاتب سعى إلى ايضاح هذه المسائل.

كتاب إحياء علوم الدين أكبر وأنفس آثار الامام أبي حامد الغزالي وأشهرها فهو حاصل تربيته العلمية وتأملاته الصوفية. فحينما ترك التدريس في النظامية ومجالسة الأعيان ومال إلى العزلة والخلوة لم يضرب عن العلم والبحث صفحاً، ولم يتوقف عن التعليم والتفكير، ولم يغسل دفتر الشريعة بماء الطريقة، بل أذاب كل ما تعلمه في بوتقة المجاهدة والمكاشفة وصاغ بكيمياء السعادة قسم الرياضة والتهذيب. فألبس الفقه والكلام حلة العرفان، ونثر على الشريعة ملح الطريقة، واستفاد من العلوم المكتسبة واستمد من المواهب الالهية والشهود القلبية. فعل كل ذلك في تدوينه لكتاب يُحيي به علوم الدين، ويعيدها إلى الصراط الأول المستقيم، وينظف ماء الشريعة الزلال مما فيه من أدران البدع والانحرافات والغش، ويفرق ظاهر الشريعة عن باطنها، ويطلق علم سلوك الباطن وتفقد احوال القلب من جور الفقه والكلام، ويدعو المسلمين إلى السير في اطوار القلب والكشف عن مكايد الشيطان ونبذ الرذائل وتطهير الباطن وعلم طريق الآخرة بدل الخوض في غوامض علم الكلام وفروع الفقه العقيمة.

لقد خلد هذا الأثر ما يمتاز به من جودة في التبويب وعذوبة وسلاسة في الكلام وعمق في التحليل، والأهم من هذا ما يموج في حديث أبي حامد من صفاء واخلاص وخوف وزهد.

وما يتفجر فيه من شفقة ويقين وتجربة روحية عميقة. وذلك الكلام الذي يخرج من القلب ليدخل إلى القلب. لم يمض قرنان على المصباح الذي أناره الغزالي حتى حمل مشعله العالم الشهير جلال الدين المولوي ليزكي نوره بفيض علمه واخرجه في معبد المثنوي[1] ثم ما لبث محسن فيض الكاشاني الذي يعتبر من كبار العلماء والعارفين، أن وضعه في زجاجة المعارف الشيعية، وغذاه من الشجرة الزيتونة المباركة وألبسه حلة من التهذيب. وهاهي شعلة المصباح ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء﴾.

وكان السبب في تأليف الغزالي لـ احياء علوم الدين أنه رأى الزمان قد ثغر من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، واستحوذ الشيطان على علماء الدين. فخيّل اخوان الشيطان هؤلاء إلى الخلق أن «لا علم إلّا فتوى حكومة تستبين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام. فامّا علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلمًا وضياءً ونوراً وهداية ورشداً فقد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسياً منسياً»[2].

ولهذا السبب بعينه وبداعي هذا الألم وكشفاً عن سر المشاركة بالقلب واللسان مع أبي حامد بادر المولى محسن فيض بعد ستة قرون منه إلى احياء علوم الدين لإحياء احيائه أو تهذيبه واضافة الآراء الكلامية والروايات المأثورة عن الشيعة إليه وحذف الاعتقادات المعارضة منه وإلباسه «ثوباً جديداً» يتناسب والمجتمع الشيعي، وان يسميه المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، ويقدمه للشيعة «ولهذا السبب بعينه مع ما ذكرت من الامور اشتغلت بتهذيب كتابه واحياء احيائه... وسميته بالمحجة البيضاء في تهذيب الاحياء وان شئت قلت في احياء الأحياء»[3].

محمد بن مرتضى الشهير بالمولى محسن فيض الكاشاني ولد سنة ١٠٠٧هـ وتوفي عام ١٠٩١هـ من كبار الفقهاء والمحدثين والمفسرين الإمامية في القرن الحادي عشر الهجري عرف كسلفه الغزالي المحبوب بغزارة التأليف وحسن الذوق. من مؤلفاته ٨٩[4] منها:

كتاب **الوافي و الشافي و النوادر في الحديث**، وكتاب **معتصم الشيعة في أحكام الشريعة و مفاتيح الشرايع في الفقه**، **و علم اليقين و أصول المعارف في الكلام والفلسفة والصافي و الأصفى في التفسير**، **والمحجة البيضاء في الاخلاق والسلوك** وهو أهم كتبه وأعظمها بعد كتاب الوافي الذي يجمع أحاديث كتب الشيعة الأربعة مع حذف المكررات وبعض التعليقات ويبدو مما أورده الشيخ يوسف البحراني في **لؤلؤة البحرين** أنه فرغ من تأليفه سنة ١٠٤٦هـ.[5] والأرجح انه اقتبس عبارة **المحجة البيضاء** من **نهج البلاغة** للامام علي(ع) حيث يقول: رحم الله امرءاً سمع حكما فوعى، ودعي إلى رشاد فدنى. وأخذ بحجزة هادٍ فنجى. راقب ربه، وخالف ذنبه، جعل الصبر نجاته والتقوى عدة وفاته. لزم الطريقة الغراء، وركب **المحجة البيضاء**[6]. طبع هذا الكتاب بتصحيح وتعليقات علي أكبر غفاري في ٨ مجلّدات في أكثر من ٣٠٠٠ صفحة من القطع الوزيري (أكبر قليلاً من حجم إحياء علوم الدين) وبمقابلته على ثلاث مخطوطات نفيسة عام ١٣٣٩ ش في طهران.

وقد اودع الغزالي بعد تأليف احياء علوم الدين خلاصة منه في كتاب كيمياى سعادت [كيمياء السعادة] الفارسي. ويبدو أن الفيض الكاشاني لخص **المحجة** بالعربية جرياً عليه وأسماه **الحقايق في محاسن الأخلاق**. وقد طبع هذا الكتاب بالفارسية أيضاً.

مما لا شك فيه أن أهم سبب دفع فيض لاحياء وتهذيب احياء علوم الدين ما في هذه المجموعة من علوم وبحوث نفيسة وحلول، فقد عرف فيض جيداً قدر كتاب كاحياء علوم الدين، وتأثيره في شفاء آلام زمانه، وهو الذي كان يشكو دهره وايامه بقوله «عمت فيها الجهالة وفشت الضلالة»[7] وكان ذا باع طويل في علم الدين وفن الكتابة. ولذا فقد حافظ على مادة وشكل وترتيب هذا الكتاب مهما تيسر. ولم يتصرف في ترتيب أبوابه وفصوله، وتقرير الفاظه وعباراته الجيدة المتينة. «لأنها كانت في غاية الجودة والاحكام ونهاية المتانة والابرام»[8] بحيث أن ما يقرب من ثلاثة أرباع **المحجة البيضاء** الآن نفس ما جاء في **إحياء علوم الدين**. واذاكان من تصرف ففي الربع الباقي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

الذي سنشرحه فيما يلي:

إن ما أورده فيض من شرح موجز في مقدمة **المحجة البيضاء** يدل على اختلافين جوهريين في العقيدة بينه وبين أبي حامد. وان كل اختلاف آخر ينبع منهما. ورغم أن أبا حامد قد تشيع في أواخر عمره- كما ذكر فيض في مقدمته هذه. كما يبدو من كتاب **سر العالمين** (شهد ابن الجوزي الحنبلي أنه للغزالي)[٩] الا أنه حين تصنيفه للاحياء كان سنياً عامي المذهب. ولهذا ضم كتابه إلى حدما مطالب مبنيّة على عقائد الاشعري والأحكام الفقهية غير الشيعية.

فدفع هذا فيضا على تهذيبها. وكان الاختلاف الثاني بين أبي حامد وفيض. اعتقاد الأول بالمتصوفه وحسن ظنه الكبير بهم وبطريقتهم. وعدم اعتقاد فيض بهم. ولذا فقد حذف من المحجة الكثير من القصص العجيبة والحكايات الغريبة المروية عن الصوفية علاوة على بعض المعتقدات والاحكام الفقهية الفرعية ومال بالطعن العنيف على أبي حامد أحياناً لعدم تحكيمه العقل الالهي وقبوله بالروايات الصوفية مما لا يستسيغه العقل. وهكذا يخلع احياء علوم الدين ثوبي التسنن والتصوف الذين ألبسه اياهما الغزالي ليرتدي على يد فيض طيلسان من التشيع العرفاني.

أن تشيع فيض ونهجه الأخباري المعتدل لم يقتصر على تصديه للغزالي فقط في الفقه والكلام بل تصدى له أيضاً في الأصول. وعدم اعتقاده بالتصوف لم يدفعه إلى نقد آراء الغزالي في باب الفقه والاخلاق بحذف القصص العجيبة وانما دفع فيضاً لرفض تقشف الغزالي وحمل نفسه على مصاعب الزهد وقبوله حتى آداب ورياضيات البدن التي لا تطيق عنده الصوفية وإعراضه عن الطيبات والمتع الدنيوية وافراطه في الاقبال على الآخرة. ونظره إلى الفقه بعين الحقارة واعتباره علماً دنيوياً ونزال الفقهاء منزلة دنيّة والقول بأن تعطيل خصومات أهل الدنيا تعطيل لحرفة الفقهاء حتى إن فيضا خالف كلّ هذا. وكان يعتبر الفقه من العلوم الأخروية والشريفة أيضاً. ويستنكر رياضات الصوفية الخاطئة. ويرى أنها معصية توجب العقوبة. وهناك حيث تلحق نار طعن الغزالي في الكلام حواسي الفلسفة فتحرقها يتصدى له فيض منقذاً وناقداً ومصححاً لكلامه.

وعلى هذا فقد تناول فيض في المحجة أربعة مواضيع بالتنقيح والتهذيب:

١ ـ الفقه وفلسفة الفقه.

٢ ـ التصوف والأخلاق الصوفية.

٣ ـ العقائد الكلامية والفلسفيّة (المعقول).

٤ ـ الروايات.

ويستمل احياء علوم الدين بالقياس إلى الكتب الفقهية على أربعة أقسام. وكل قسم على ١٠ كتب (أو ١٠ أبواب) ولذا فهو يتضمن اربعين كتاباً.

ويقول الغزالي في مقدمة الاحياء إن ما دفعه لتقسيم الكتاب إلى أربعة أقسام سببان:

الأول ماهية المطالب الواردة فيه.

والثاني تقليداً لنهج الفقهاء. فالمطالب الواردة في الكتاب تتعلق بعلم المعاملة وليس علم المكاشفة (الذي يطلب به كشف المعلوم فقط. ولا رخصة في ايداعه الكتب والرسائل). ويتحدث علم المعاملة عن علم اعمال الجوارح (علم ظاهر) او العلم بأحوال واعمال القلوب (علم باطن) واعمال الجوارح قسمان: العادات والعبادات. كما أن احوال القلوب قسمان ايضاً: محمود ومذموم. ولذا فأن كتاب **احياء علوم الدين** اربعة اقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات.

وتقسيم الفقهاء يزيد من رغبة طالبي معرفة الفقه والمستفتين اليه ويزين الكتاب في ناظرهم. وان كان في هذا الكتاب كثير من النقاط مما أهمل في فن الفقهيات[١٠] كذلك فإن ابن بطلان البغدادي وضع كتاباً قياساً على كتب تقويم البلدان سماه تقويم الصحة وضمنه جداول وصوراً ليكون جاذباً للمطالعين.

ربع العبادات ويستمل على عشرة كتب:

كتاب العلم. كتاب قواعد العقائد. كتاب اسرار الطهارة. كتاب اسرار الصلاة. كتاب اسرار الزكاة. كتاب اسرار الصيام. كتاب اسرار الحج. كتاب آداب تلاوة القرآن. كتاب الأذكار والدعوات. كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

ربع العادات. ويستمل على عشرة كتب أيضاً:

كتاب آداب الأكل. كتاب آداب النكاح. كتاب أحكام

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

الكسب، كتاب الحلال والحرام، كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، كتاب العزلة، كتاب آداب السفر، كتاب آداب السماع والوجد، كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، كتاب آداب المعيشة واخلاق النبوّة.

ربع المهلكات، عشرة كتب:

كتاب شرح عجائب القلب، كتاب رياضة النفس، كتاب آفات الشهوتين (في المحجة: كسر الشهوتين) شهوة البطن وشهوة الفرج، كتاب آفات اللسان، كتاب آفات الغضب والحقد والحسد (في المحجة: ذم الغضب)، كتاب ذم الدنيا، كتاب ذم المال والبخل، كتاب ذم الجاه والرياء، كتاب ذم الكبر والعجب، كتاب ذم الغرور.

ربع المنجيات:

كتاب التوبة، كتاب الصبر والشكر، كتاب الخوف والرجاء، كتاب الفقر والزهد، كتاب التوحيد والتوكّل، كتاب المحبة والانس والشوق والرضا، كتاب النية والصدق والاخلاص، كتاب المراقبة والمحاسبة، كتاب التفكر، كتاب الموت وما بعده.

وهذه الاقسام ليست متساوية. فربع العبادات أصغرها وربع المنجيات أكبرها. وربع المنجيات يكبر العبادات بمرة ونصف، ولم يدخل فيض أي تغيير في ترتيب الكتب ما عدا في ربع العادات. فاستبدل كتاب آداب السماع والوجد، بكتاب آداب الشيعة وأخلاق الامامة، الكبير الضخم «لأن السماع والوجد ليس من مذهب أهل البيت عليهم السلام»[١١]. ورغم أنه أبقى اسم كتاب قواعد العقائد (الكتاب الذي من ربع العبادات) ولم يستبدله بكتاب آخر فقد كان أكثر تصرفاً في مضمونه.

وعدا القليل من حديث الغزالي في باب أوصاف علم الكلام وما أورده فيه من ارشاد الخواص والعوام فان بقية الكتاب يتفق وعقائد الشيعة الامامية. وحيثما يُرجع الغزالي القارئ إلى كتابيه الرسالة القدسية و الاقتصاد في الاعتقاد ليعلم القدر الاقل من الاعتقادات الحقه وأدلتها فإن فيضا يورد بدلاً منهما كتابيه منهج النجاة و علم اليقين ويدعو القارئ للرجوع إليهما[١٢]. وفي هذا الكتاب (قواعد العقائد) ينقل فيض

أيضاً من المقالة الرابعة لكتاب الغزالي «سر العالمين وكشف الدارين» عبارات عن وقعة غدير خم مؤيدة لعقائد الشيعة[١٣]. اما كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد تقلص ولم يبق منه الا القليل.

وعلاوة على ذلك نجد أن اسلوب فيض في تنقيح وتهذيب بقية كتب احياء علوم الدين يقوم على ايراد النقطة التي لا يتفق مع أبي حامد فيها ثم يبادر إلى ردها وتصحيحها بذكره أقول أو انه يورد الصواب بالتفصيل قبل اقول ويدعم رأيه بما يؤيده عند الشيعة.

كما نراه يحذف في كثير من المواضع العبارات التي لا تعجبه او لا يراها صحيحة دون أن يشير إلى ذلك. وسنشير إلى نماذج من هذا النوع فيما بعد. ويحذف ايضا بعض ما روي عن السنة والحكايات والروايات المأثورة عن السلف الصالحين، ويضيف او يحذف فصلاً على النادر. ومن ناحية أخرى فإن اضافته لروايات من مصادر الإمامية امر كان يهتم به في جميع الكتب الأربعين. فقد أورد في كل الكتب ولاسيما في ربع العبادات والعادات احكاماً فقهية تتفق وفقه الشيعة وفتاويهم. وغالباً ما ذكر النصوص الواردة عن أئمة الشيعة عليهم السلام بصراحة. اما في اسرار العبادات فقد ذكر كل ما أورده أبو حامد تقريباً بلا زيادة أو نقصان.

وبنظرة عميقة ومقارنة عامة نجد أنه ادخل تغييراً كبيراً في كتاب آداب الكسب والمعاش. وانه أضاف في آخر كتاب الحلال والحرام فصلاً في مسائل مختلفة عن أهل البيت بدلاً من مسائل أبي حامد المتفرقة. وانه حذف قدراً كبيراً من كتاب الامر بالمعروف. واهمل تماماً الباب الرابع من كتاب ذكر الموت وهو باب وفاة رسول الله والخلفاء الراشدين واستبدله بباب وفاة رسول الله الذي أخذه من كتاب (التهاب نيران الاحزان). كما حذف باب (اقاويل الصالحين عند الموت) وباب (المنامات تكشف عن احوال الموتى) وبيان (صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله). واضاف (زيارات ائمة الشيعة) إلى كتاب السفر. وأورد في كتاب الأذكار والدعوات أدعية كثيرة مأثورة عن طريق الخاصة. وأضاف في آخر كتاب الفقر والزهد محاجة الامام الصادق مع سفيان الثوري.

اما كتاب المراقبة والمحاسبة وكتاب التفكر فقد اوردهما في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

المحجة كاملين مع قدر من الاختلاف قليل. وكذلك فإن كتب العزلة وكسر الشهوتين وآفات اللسان وآفة الغضب وذم الدنيا وذم المال، وذم الجاه والرياء، وذم الكبر والعجب وذم الغرور و كتاب آداب تلاوة القرآن وكتاب التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء وعجائب القلب والمحبة والأنس وكتاب النية والصدق بقيت على شكلها الأصلي تقريباً ولم يطرأ عليها من التغيير سوى بعض المناقشات واضافاته وحذفه.

وفي كتاب رياضة النفس والتوكل والفقر والزهد نشاهد تصدي فيض الشديد لمناقشة أبي حامد واعتداله مقابل زهد وتقشف الغزالي الشاق. وتبدو مجابهة هذين القطبين في بعض الافكار السياسية التي وردت في كتابي الحلال والحرام والأمر بالمعروف بحيث لا يبقى من الكتاب الأخير سوى العشر. ويصل حجم الكتاب إلى ما يقرب من ربع أصله في الأحياء. اما كتب اسرار الطهارة والصلاة والزكاة والحج والصيام واحكام الكسب فطافحة بالاحكام الفقهية الشيعية.

وكتاب العلم وقواعد العقايد مسرح لبروز الاختلافات الاصولية والعقائدية بين فيض وأبي حامد. فنرى فيضاً يبادر للرد على الغزالي في كل موضع يشم فيه رائحة الاشعرية. أو تروى فيه فضيلة للخلفاء، أو يَرد حديث عن تحسين التصوف وما يعجب المتصوفة أو رواية لا يوثق بها ولا يستسيغها العقل. أو يُذكر حكم فقهي يتفق ومذاهب السنة. أو ما يعارض عقائد الامامية في باب المبدأ والمعاد. وكان هذا الصراع يبدو ظاهراً حيناً، وخفياً وبلا ضجيج حيناً آخر. رغم كل هذا، فكما أشرنا سالفاً إن أكثر ما ورد في كتاب المحجة ورد في إحياء العلوم الا ربعاً منه. وهذا يدل على أن فيضاً وأبا حامد رغم ما بينهما من اختلافات كلامية وفقهية كبيرة يصبحان يدا واحدة ولسانا واحداً حينما يصلان إلى جوهر الشريعة حيث العبودية والاخلاص والاحسان والشفقة على الخلق والمجاهدة مع النفس والقناعة والتقوى. وحينما تنعزل الشريعة ويبرز سفر الحقيقة يجلسان رفيقين ويصبح كل منهما محرما للآخر:

اختلاف خلق از نام اوفتاد
چون به معنا رفت آرام اوفتاد
آفرين بر عشق كل اوستاد
صد هزاران دُرّه را داد اتّحاد

والآن يجدر بنا ايراد صورة أوضح والحديث باسهاب عن الاختلافات بين كتابي احياء علوم الدين و المحجة البيضاء.

الاوّل: الفقه وفلسفة الفقه

الف: الفروع الفقهية

لا حاجة للاطالة في الحديث عن الاختلافات الفقهية بين فيض وأبي حامد. ذلك أن ذكر الاختلاف في احكام الطهارة والصلاة والصيام عند الشيعة والسنة لا يختص بكتابي المحجة والاحياء فكتب فقهاء الفريقين تطفح بالاحكام المتخالفة الفقهية، كما تم الكشف عن اختلافات الفقهاء الرئيسية في كل مذهب عن المذهب الآخر وشرحت مراراً. والأهم من هذا ليست الاحكام الفقهية أصولاً من الاركان المقدمة والاجزاء الجوهرية للاحياء والمحجة كي تنتفع بها. وكما نعلم عن مؤلفي هذين الكتابين ولاسيما الغزالي انه كان يفتش عن جوهر الشريعة في مكان آخر. ولا يميل إلى الفقه ليسهب في الحديث عنه. كما أن فيضاً لم يخف ابداً أن ما أورده من احكام فقهية في كتاب المحجة البيضاء يتفق مع فقه الشيعة وأنه يذكر استنباطاته، ويلقي بآراء الغزالي في هذا المجال جانباً.

ففي اوائل كتاب الطهارة مثلاً. ما أن يبدأ الغزالي الحديث في باب الطهارة عن الخبث ويشرع بافتاء فقهي حتى يقول فيض بصراحة «أقول: ولندع الآن ما أفتاه ابو حامد على مذاهب العامة وأصحاب الرأي الّا ما لا بأس به منه ولنتكلم على طريقة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم[١٤] إن تعبد هذين القطبين في الفقه واجتهادهما فيه لا ينكر. ولكن الجدير بالبحث هنا المنزلة التي يرفعان اليها الفقه بين العلوم الدينية الأخرى. والتأثير الذي يتركه فلسفة الفقه هذا على بعض الفروع والفتاوي الفقهية.

فالغزالي فقيه شافعي ماهر وعالم في الأصول بارع يدل على مدى احاطته وتبحره فيهما كتب الوسيط و الوجيز و البسيط في الفقه، وكتاب المستصفى في علم الأصول. وفيض الكاشاني كما سبق وذكرنا له مؤلفات مهمة في الفقه والحديث، وينحو في الأصول منحى الأخباريين المعتدل. ويسعى كما يزعم جهده لتطهير الاجتهاد من تصرفات الأصوليين التي لا تخلو من الجرأة. وكلا القطبين ينكران الاباحة واللوم والتهاون

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

كـام الفقهية الـذي يبـدو في ثوب عدم الاهتـمام بها
ناع عن العمل بالأوامر الالهية ويقبحانها.
لمـولى محسن فيض الكـاشـاني يؤيد الغـزالي ويتبعـه
ـان في كتاب ذم الغرور، فرق المتصوفة التي غلب عليها
ـور «ووقعـت في الابـاحة وطووا بساط الشرع ورفضوا
كـام وسـووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم ان الله
فن عن عملي، فلِمَ أتعب نفسي. وبعضهم يقول: قد كلفوا
س تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك
... ونحن جربنا وأدركنا ان ذلك محال... وبعضهم يقول:
عمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا
ة الى حب الله وواصلة إلى معرفة الله...»[١٥].

وكذلك يورد الغزالي في نقد طريقة الملامتيّة في كتاب ذم
ـاه والرياء من احياء علوم الدين (ويتبعه في ذلك المولى محسن
ض الكـاشاني في المحجة البيضاء) «واما من حيث العمل
سقـاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة افعال يلام عليها
تى يسقط من أعـين الخلق... وهذا هو منهاج الملامتيّة إذا
تحمـوا الفـواحش ليسقـطوا أنفسهم من عيون النـاس
يسلموا من آفة الجاه. وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن
لدين في قلوب المسلمين. واما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له
ن يقدم على محظور لأجل ذلك بل أن يفعل من المباحات ما
يسقط قدره عند الناس...»[١٦].

ويتحدث الغزالي ايضا في الباب الثاني من كتاب الكسب
والمعـاش عن الكسب بطريقة البيع والربا والسلم والاجارة
والقراض والشركة ويعدد الشروط الشرعية والفقهية لمثل هذه
التصرفات. ويعتبر العلم بهذا الباب «واجباً على كل كاسب».
ويورد فيض في المحجة البيضاء نفس الباب. باستبدال آراء
فقهاء السنة بآراء فقهاء الشيعة[١٧].

ومن الواضح ان الحديث لا يتناول العمل أو عدم العمل
بالأحكام الفقهيةوتحقيرهـا. فصلابةهذين المجتهدينالكبيرين في
الفقه والشريعة اوضح من أن تحتاج للتأكيد. واذا كان حديث
واختـلاف ففي مكـان آخـر. حتى ان كليهـما يجيزان بعض
التسهيلات الفقهية التي تدعو للنقد بنفس النسبة. فالغزالي في
كتاب ذم الجاه والرياء مثلاً يؤيد عمل بعض الزهاد ويتسامح
في نقله: فيشـربـون شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر
ليتخلصوا من حب الجاه ويسقطوا من اعين الناس، ثم يضيف
قائلاً:

«هذا في جوازه نظر من حيث الفقه. وربما يعالجون أنفسهم
بما لا يفتي به الفقيه حتى يتداركوا ما فرط منهم فيه من صورة
التقصير كما فعل أحد الزهاد الذي عرف بالزهد، وأقبل الناس
عليه. فدخل حماماً، ولبس ثوب غيره. ووقف في الطريق حتى
عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا انه طرّار
وهجروه» وقد أيد فيض الكاشاني نفس هذه العبارات فأوردها
في المحجة دون أي نقد أو اعتراض عليها[١٨].

واشترك القطبان ايضاً في ترك الحيل الفقهية والوساوس
العملية والفقـه الـذي يورث الغـرور والغفلة عن الـطب
الروحاني والفقه الاكبر.

امـا الفقهاء الذين يحسبون أن التفقه في الدين ينحصر
بمعـرفـة الفقه ويقتصر على الخلافيات والمعاملات الدنيوية
الجارية ويظنون ان مراد الله من التفقه في قوله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعـوا اليهم**﴾ هو تعلم الفقـه الـرائج، وبتعلمه يحصل الانذار. ولذلك غفلوا عن تهذيب النفس والسلوك الاخلاقي، واعتبروا علم الفقه أفضل من بقية العلوم نظرياً ولم يبدوا رغبة في تعلمه ولاسيما ذلك الفريق من الفقهاء الذين اقتصروا من علم الفقـه على الخـلافيات ولم يهتموا إلّا بالمجادلة وإفحام الخصوم والمباهاة بالغلبة على الأعداء. ويفتشون ليل نهار عن منـاقضات أرباب المذاهب الفقهية المختلفة ليؤذي كل منهم الآخر ويبتهجون لتفقد عيوب ونواقص الأقران.

فقد تعرض هـذان الفريقان لطعن الغزالي وفيض الشديد وتقبيحهما واعتبراهما من المغرورين المحجوبين ولاسيما الفريق الثـاني الـذي سماهم الغـزالي «سباع الأنـس، لأن طبعهـم الايذاء وهمهم السفـه»[١٩]. فكـل ما لا يحتاج اليه هؤلاء في المباهاة على الأقران كعلم السلوك إلى الله والعلم بطرق محو الرذائل وكسب الفضائل. فإنهم يعتبرونه من التزويـق وكلام الوعاظ وليس من التحقيق ويرون من فنون التحقيق كشف أساليب العربدة والحرب والخصام والصراع. فهؤلاء كما يقول أبـو حامـد اشتغلوا بفـروض الكفايات وغفلوا عن فرض الواجب الذي هو اصلاح انفسهم. واصبحوا عاجزين مثالهم

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

مثل من به علة البواسير والبرسام ولكنه يفتش عن دواء الاستحاضة. فلربما امرأة تسأله يوما عنه وهو خيال باطل. وكذلك المتفقه المسكين قد تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الأخرى، وربما اختطفه الموت قبل التوبة فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل بعلم احكام السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوي والبينات وكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره. واذا احتاج اليها غيره كان في المغنين كُثُر[٢٠].

والفريق الآخر من الفقهاء الذين يتعرضون لنقد الغزالي وطعنه في كتاب ذم الغرور الفقهاء الذين يتعلمون الحيل ويظنون أنهم بتأويل الالفاظ المبهمة واتخاذ اساليب المكر والاستفادة من الحيل الفقهية يستطيعون تخليص شخص في المحاكم القضائية، وتحصيل رضى الله، فهم يتعلمون مثلاً أن المرأة اذا ابرأت زوجها من الصداق برئ الزوج تجاهها وبينه وبين الله.

ولكن الغزالي يرفع صوته بالاعتراض هنا قائلاً: هل الحكم بين العبد وربه يتبع احكام المحاكم القضائية؟ فقد يسيء الزوج إلى زوجته ويضيق عليها فتضطر الى طلب الخلاص والطلاق فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهل هذا ما يرضاه الله وهو القائل: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ او أن فقيها كان يهب ماله في آخر الحول الى زوجته ثم يستوهب مالها لاسقاط الزكاة. نعم ان مثل هذا الشخص قد تهرب من مطالبة السلطان ولكن هل يستطيع يوم القيامة أن يدعي أنه لم يملك مالاً؟ فما أعظم جهله بالدين وسر الزكاة. فسر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل واي طهارة تحصل بمثل هذه الحيل التي ليست شيئاً سوى تعظيم الرذائل. وبعد هذه الطرهات الأليمة يقول أبو حامد في نهاية البحث «اذا أردنا أن نشرح غرور الفقهاء في أمثال هذا للأنا فيه مجلدات»[٢١].

والغزالي يخبرنا في كتاب العلم من ربع العبادات ان الفقيه المحتال الذي يتهرب بتلك الحيلة الفقهية عن دفع الزكاة هو القاضي ابو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري تلميذ أبي حنيفة وأول قاض للقضاة في عالم الاسلام والفقيه الكبير في القرن الثاني الهجري، وانه حينما حكي ذلك لأبي حنيفة مدحه وقال: «ذلك من فقهه» ويضيف أبو حامد: صدق أبو حنيفة. إن فقه أبي يوسف هداه إلى مثل هذه الحيل «الّا أن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية ومثل هذا العلم هو الضار»[٢٢].

وفي باب الوسواس العملي وإن كان ابو حامد (ويتبعه فيض) لا يلقي بالخطأ كاملاً على عاتق الفقهاء الّا أنه يعتبر البصيرة والفكر مسئولين عن أنهما عاجزان وغافلان عن البحث في دقائق الرياء والظلم، ولا تسعى في سبيل الوصول إليها. بينما تمعن في استنباط الاحتمالات الغريبة في الطهارة والنجاسة. يقول في كتاب اسرار الطهارة: «إن أعمى البصيرة... يستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة. ظنا منه بحكم الوسوسة وخبل العقل ان الطهارة المطلوبة المشرفة هي هذه فقط وجهلاً بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساهلهم في امر الظاهر حتى أنهم ما كانوا يغسلون اليد عن الدسومات بل كانوا يتمسحون اصابعهم بأخمص اقدامهم... وكانوا يجعلون الصلاة في النعلين أفضل، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء. وكانوا يأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحترزون من عرق الابل والفرس مع كثرة تمرغها في النجاسات. ولم ينقل قط أن أحد المسلمين سأل عن دقائق النجاسات. هكذا كان تساهلهم. اما اليوم فقد انتهت النوبة الى طائفة يسمون الكبر والرعونة نظافة. ويقولون هي مبنى الدين وأساسه كما تفعل الماشطة بعروسها. فيزينون الظواهر. والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولكنهم لا يستنكرون ولا يتعجبون منه[٢٣].

وفي الباب الثالث من كتاب العلم يورد ابو حامد خمسة الفاظ أصابت معاني جديدة في معجم المسلمين تختلف عما أراده السلف الصالح. وذلك لالتباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية. وهي الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة. ويقول: لقد اخرجوا الفقه من معناه الواسع، وخصصوه بمعرفة الفروع الغريبة والعلل الدقيقة واستكثار الكلاء فيها... ومن كان اعلم بها واشد تعمقاً وغوصاً فيها فهو الأفقه.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

نه في العصر الأول للاسلام كان الفقه يطلق على طريق خرة ومعرفة آفات النفس ومفسدات الأعمال والقدرة على م حقارة الدنيا وشدة فهم الآخرة وزيادة الخوف من الله، ل على ذلك آية ﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم﴾ دون يعات الطلاق واللعان والاجارة والارث. فالخوض في ذلك يسبب الخشية فقط بل ويزيلها. ويرى الحسن البصري أن قيه هو الزاهد في الدنيا والراغب في الآخرة والبصير بدينه لداوم على عبادة ربه والكاف عن أعراض الناس وأموالهم لناصح للمسلمين.وكما يبدو فإنه لا يعتبر حفظ الفروع فقهية في أي موضع من صفات الفقيه. وبما أن الفقه بمعنى علم الباطن والعمل به عسير ومعقد ولا يتوصل به إلى لحكومة والرياسة والجاه والمال فقد وجد الشيطان بشيطنته بالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم للفقه تديد سلب به قلوب كثير من الناس[٢٤].

ليس إلى هنا اختلاف بين فيض وأبي حامد. واذا كان ختلاف ففي حد التسهيلات الفقهية (ويقول الجوزي بيع لفقه) وهو مولود علم فقه هذين القطبين. فقد رأينا كيف أن يضاً يجيز مع كل ما يتصف به من زهد وحيطة وحذر أن يشرب رجل شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر عندما يرى أن رذيلة كحب الجاه، التي تعتبر أُم الرذائل، تبسط ظلها الأسود على نفس الإنسان الظالمة والجاهلة لتغرقها في دياجيرها. أو أن يرتدي ثياب غيره فوق ثيابه ليعرف بالسرقة ويسقط من أعين الخلق. الا أن هذا بداية الطريق والغزالي مستعد لقطع خطوات أوسع فيه؛ غير أن فيضاً لا يؤيده في كل المواضع. وكذلك بعض فقهاء السنة يخطئون حامداً في عمله هذا ونظره. وكان فيضاً لا يألو جهداً عن استنكار تسهيلات أبي حامد الفقهية بالاعتراض الواضح حينا والخفي حينا آخر بالحذف.

ويحدد الغزالي في كتاب رياضة النفس تحت عنوان بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق أسلوباً وقواعد عامة لتهذيب النفس ومعالجة الرذائل الاخلاقية ويقول بالمقايسة مع الطب الجسماني والاقتباس منه: المرض، خروج من الاعتدال، ولإعادة الاعتدال يجب أن يعالج كل مرض بضده. فالمرض الحاصل من حرارة فبالبرودة، والمرض الناشيء من برودة فبالحرارة، وكذا في الطب الروحاني، فعلاج الكبر بالتواضع، والبخل بالسخاء، والشره بالكف عن المشتهى، والاستاذ الشيخ يجب أن ينظر إلى المرض الذي يغلب على المريد فيشير عليه بالرياضة المناسبة لتلك الرذيلة. فإذا كان المريد مثلاً يملك مالا فاضلاً عن حاجته، أخذه منه وصرفه في الخيرات.. وأذا رأى الكبر والرعونة غالبة عليه، يأمره بالكدية، ليقتل كذب نفسه بذل السؤال. واذا رأى المريد أن الغالب عليه نظافة البدن وتنظيف الثياب والزينة، استخدمه في تعهد بيت الخلاء وتنظيف المطبخ وكنس المواضع القذرة. وأذا رأى شره الطعام غالبا عليه. وأنه مضر له الزمه الصوم وتقليل الطعام. ويكلفه أن يهيىء الأطعمة اللذيذة لغيره وهو لا يأكل منها. واذا رأى رجلاً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الوصول اليه، يأمره بالصيام وأن يفطر ليلة على الماء دون الخبز، وليلة على الخبز دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم. واذا رأى مريداً يغلب عليه الغضب سلط عليه صاحباً اكثر منه غضباً ليصبح حليماً. كما إن شخصاً أراد أن يزيل عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر حتى أصبح الحلم عادة له بحيث يضرب به المثل، وبعضهم كان يستشعر الخوف فأراد أن يكتسب الشجاعة فكان يركب سفينة في الشتاء عند اضطراب امواج البحر. وبعض الشيوخ كان في ابتداء سلوكه وإرادته يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليرضى بالقيام على رجل في سائر الليالي. وعالج بعضهم حب المال بأن باع كل ممتلكاته ورمى به في البحر. ولم ينفقه على الآخرين خوفاً من رعونة الجود والرياء بالبذل[٢٥].

إلى هنا لم يوافق فيض أبا حامد فيما أوردنا الاّ بقوله: يجب عدم معالجة جميع المرضى بطريقة واحدة ودواء واحد. ثم حذف ما ورد بعد ذلك في تفصيل المعالجات كأخذ المال الزائد والأمر بالتكدي واذلال النفس ومصاحبة سيئي الخلق. وحكايات ورياضة بعض المشايخ والزهاد، وأنهى الفصل بقوله: «ثم ذكر أبو حامد جزئيات طريق تعليم الشيخ للمريدين، ولما كان بناء أكثرها على ايجاب متابعة من يجوز عليه الخطأ، وعلى بدع أخرى تخالف طريقة أهل البيت عليه السلام، طويناها»[٢٦].

ولا تخالف بعض هذه المسائل طريقة أهل البيت فحسب بل انها لاتتفق وفقه السنة، ولهذا السبب فإن ابن الجوزي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

النـاقد الكبير للصوفية يذكر في البداية حكايات السلف في تلبيس أبليس ثم يتساءل مستنكراً: «هل يحل سب مسلم بلا سبب وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك أحد؟ وكيف يمكن ركوب البحر زمان اضطرابه، وذلك زمان قد يسقط فيه فريضة أداء الحج؟ كيف يحل السؤال لمن يقدر أن يتكسب؟ فما ارخص ما باع الغزالي الفقه بالتصوف»[٢٧].

وهذا هو بيع الفقه الذي كان يرفضه فيض، وكانت مثل هذه المواضيع تدفع ابن الجوزي إلى أن يقول عن الغزالي في مواضـع آخـر من كتابه «مـلأه (كتاب الاحياء) بالأحاديث الباطلة وخرج عن قانون الفقه»[٢٨].

ومع ذلك فقد كان فيضاً اكثر اعتدالاً مع أبي حامد وأرحم بـه وأقـرب من ابن الجـوزي. فرغم أنه لا يرى السماع والوجد طريقة اهل البيت. ويحذف كتاب آداب السماع والوجد من المحجـة البيضاء ويستبدله بكتاب آداب الشيعة واخلاق الامـامـة المسهب فإنـه يوافق على جوهر فتاوي أبي حامد الفقهية في السماع والغناء ويبرز ذلك في كتاب (آفات اللسان) من ربع المهلكات. والآفة التاسعة من آفات اللسان العشرين كما وردت في آفات اللسان هي آفة الغناء والشعر. وقد نقل الكاشاني رأي أبي حامد في باب السماع بقوله: إن السماع قد يكون حراماً وقد يكون مباحاً وقد يكون مكروهاً. اما الحرام فهو لأكثر الناس من الشبّان ومن غلبهم شهوة الدنيا فلا يحرك السـمـاع منهم إلا ما هو الغـالب على قلوبهم من الصفـات المذمومة. والمكروه لمن لا يتعلم منه درس الفساد ولكن يتخذه عادة له على سبيل اللهو. والمباح لمن لا حظ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن. والمستحب لمن غلب عليه حب الله والسماع والغناء لا يحركان فيه الا ذلك الحب الصافي والمحمود.

ثم يذكر عدداً من روايات الشيعة ويستنتج أن حرمة الغناء وما يتعلق به من الإستماع لما كان معروفاً في زمن بني أمية وبني العبـاس من اختـلاط الرجال بالنساء وتكلمهن بالأباطيل ولعبهن بالمـلاهي والعيدان والقضيب. ومـا سوى ذلك، فإما مستحب كالترجيع بالقرآن وسائر المعاني والالفاظ والاصوات التي تذكر الانسان بالله والدار الآخرة، واما مباح ومكروه كما ذكرهما أبو حامد وقد يختلف الحكم على الغناء والسماع بتفاوت درجات الناس فإنه لا يليق بذوي المروءات ما يليق بمن دونهم[٢٩].

والآن ونحن نختم الحـديث عن الاختـلاف في الفتاوي الفقهية بين فيض وأبي حامد. لابد من الاشارة إلى اثنين من هذه الفتاوي ذات الصبغة السياسية الأكيدة. الأولى في لعـن يزيد والأخرى التخشين في القول مع الحكام الجائرين. ففي كتاب آفات اللسان، الآفة الثامنة حديث عن آفة اللعن ويبدو مما ورد فيها إن ابا حامد كان يتخذ فيها جانب الحيطة والحذر، فهو وإن كان يرى جواز لعن الماضين على الكفر، وجواز لعن الكافر أو الفاسق بشكل عام (وبالاسم الخاص للأفراد) وأن نقول مثلاً لعنة الله على اليهود أو على الزناة و آكلي الربا، أما اللعن للشخص المعين والأعيان فيرى أن فيه خطراً. فربما يموت الظالم أو الكافر على الايمان. ولذلك فإن لعن الأفراد في حياتهم وطلب بقائهم على الكفر وبعدهم عن رحمة الله غير جائز وليس من الحزم، إلّا من أعلم به الرسول فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر لمعرفته بالغيب، أو أن يقال في لعن شخص: لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه إن مات على الاسـلام. ولـذا فعـدم اللعن أقل خطراً. وفي اللعن أخطار وأضرار كثيرة: وربما حديث أبي حامد هذا هو الذي ألهم كباراً كمولوي وحافظ حين قالا:

هيـج كافـر را بـه خـواری منـگـريد
كه مسلمـان مردنـش باشـد امبـد (مولوی)
عيب رندان مكن اى خواجه كزين كهنه رباط
كس ندانست كه رحلت به چسان خواهد بود (حافظ)

وأخيراً يتساءل أبو حامد أحيانا بعد هذه المقدمات: هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين(ع) أو آمر به. ويجيب: هذا لم يثبت أصلاً، فلايجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت. فضلاً عن اللعنة. فلم يثبت قتل يزيد للحسين كما ثبت قتل ابن ملجم عليا وقتل أبي لؤلؤة عمر.

لذلك يجوز أن يقال قاتل الحسين أياً كان اذا مات قبل التوبة لعنه الله لأننا نعلم أن وحشياً قاتل حمـزة عم الرسول، تاب عن الكفر والقتل جميعاً قبل الموت ولا يستحق اللعنة، فلا يجوز إذن لعن القتلة بصـورة مطلقة. والاحتياط يقضي بألّا يطلق الانسان لسانه ما أستطاع فقد أوصى الرسول قائلاً: اوصيك ان لا تكون لعّاناً[٣٠].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

وهنا يتصدى فيض الكاشاني للرد على أبي حامد فيقول: لقد ثبت مما ورد من روايات وأدعية عن جوامع الشيعة. أن لعن رؤساء الكفر والضلال من جملة العبادات المقربة إلى الله تعالى. وحتى إذا قبلنا ما ذهب اليه أبو حامد بجواز لعن من أعلم به رسول الله أمكن لعن معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى وابي الأعور السلمي لأن الامام علي عليه السلام كان يلعنهم في قنوت الصلوات المفروضة. وباعتقاد الامامية ما ثبت عن علي وائمة الشيعة كأنما ثبت عن رسول الله. ثم إن الرسول لم يوص بقوله «لا تكونوا لاعنين» بل «لا تكونوا لعانين» فلعله نهى أن يكون السب خلقا لهم، بسبب المبالغة في اللعن، لا أنه نهى عن لعن المستحقين. وبعد هذه الملاحظات نرى فيضاً كغيره من عباد الرحمن وعملاً بالآية الكريمة من سورة الفرقان: ﴿اذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ يمر على حديث أبي حامد في باب لعن يزيد مر الكرام ولا يتعرض له ويكظم غيظه ويقول: «اما ما ذكره أبو حامد في هذا الباب من الكلام في باب لعن يزيد ـ لعنه الله ـ فينبغي أن يطوى ولا يروى»(٣١).

وفي نفس كتاب آفات اللسان هذا يردّ فيض أيضاً حديث أبي حامد عن الغيبة. ولا يرى أن كل الرذائل والنقائص من نوع الغيبة حراماً كما لا يعتقد بصحة رواية عائشة أنها ذكرت امرأةامام‌الرسول فقالت:ان هذه‌لطويلة الذيل. فقال الفظي الفظي. فلفظت بضعة من لحم. [أي أنها بتغيبتها قطعت قطعة من لحم من جسدها ومضغتها]. ويقول فيض: هذه الأخبار لا تصلح لاثبات حكم شرعي. وإن بعض رؤساء وأئمة الضلال فيهم من النقائص والعيوب ما يحوجهم إلى مثل هذه الأحاديث، خوفاً من انتشار هذه النقائص ونفرة الرعية منهم. وكما إن في التعرض لإظهار عيوب الناس خطراً ومحذوراً فكذا في حسم مادته وسد بابه، فإنه تقرير لأهل النقائص ومرتكبي المعاصي على ماهم عليه(٣٢).

والفتوى الثانية التخشين في القول ومنع الظالمين بالقهر. وهو من نوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكما ذكرنا آنفاً فإن حجم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الكتاب التاسع من ربع العادات في احياء علوم الدين، تقلص في المحجة إلى أقل من الربع، وحذف في هذا الربع أيضاً الكثير من أحاديث أبي حامد. وحل محلها ما أورده فيض من شروح، بحيث إن كتاب الامر بالمعروف هذا أصغر كتب المحجة البيضاء، وهذا الكتاب من أهم كتب احياء علوم الدين، وأكثر غوصاً في المسائل الاجتماعية والسياسية.

وحديث أبي حامد في باب أمر الحكام ونهيهم والجائز منه وغير الجائز والمحمود والمذموم ولاسيما استعمال السلاح أو لزوم استئذان الوالي في الامر بالمعروف. يدعو إلى البحث مباشرة وبشكل واضح حول ما يتطرق إليه اليوم تحت عنوان الحرية والنضال السياسي وأمثالها في فلسفة السياسة.

وكذلك فإن بحث الغزالي الوافي في أركان الأمر بالمعروف وشروطه والذي يشتمل على البحث في الاحتساب والمحتسب وآدابها وشروطها (الباب الثاني) وما أورده من تفصيل في باب المنكرات والقبائح والاعمال غير المشروعة مما يجري في المساجد والأسواق والشوارع والحمامات والضيافة، وواجب المحتسبين والرعية تجاهها (الباب الثالث) ليطلعنا على مختلف الاعمال التي كانت مفروضة آنذاك في البلدية والشرطة. وتكشف الستار عن حقيقة المدن والحياة الاجتماعية فيها، كما تطلعنا على النظرة الإجتماعية الدقيقة التي كان يتمتع بها سالك معتزل كالغزالي. وعلى تفقهه واجتهاده الشخصي حول بعض المسائل العويصة. ولم يورد فيض أيّا منها في المحجة معتذراً بقوله: «لأن عندنا لا يجوز الاحتساب من الجاهل بالمعروف عن المنكر. وإنما يجب على العارف القوي المطاع الجامع للشرائط المعتبرة فيه، ومن كان هذه صفته لا حاجة له إلى تعريفنا اياه المنكر. على ان كل ما ذكره فيه أبو حامد ليس مستنداً إلى أصل صحيح، وإنما كان يبتني بعضه على أصوله الفاسدة»(٣٣).

وفي الباب الثالث هذا يطلب أبو حامد من المؤمنين منع الوعاظ في المساجد من قول البدع، واولئك الذين يميلون خطأً إلى تجرئة الناس على المعاصي لما يَعِدون بعفو الله ورحمته. كما يجب منع الواعظ الشاب الذي يتزين بالثياب ويكثر من الأشعار في كلامه والاشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء. وكذلك منع القصاب من ذبح الحيوانات في الشارع العام. ويرى من المنكرات أيضاً إلقاء قشور البطيخ أو رش الماء والقمامة في الطرق. وترك مياه المطر والأوحال

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

والثلوج فيها. ويرى كذلك ان من غير الجائز ان يطلق أحد كلبه ليضيق الطريق ببسط ذراعيه فيمنع منه. ومن المنكرات دخول حمام نقش في اعلاه صورة حيوان وانسان ويجب ازالتها على من يدخله إن قدر. واذا كان في مدخل الحمام حجر املس مزلق فهذا منكر ويجب قلعه. وكذلك فإن اسدال الستور المنقوشة في الضيافة واستعمال ماء الورد في أواني الفضة وسماع الأوتار والقينات واجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال الشباب، كل ذلك منكر يجب تغييره ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج من الضيافة. ولا يجوز كذلك الجلوس مع الرجال الذين يلبسون الحرير أو الخواتم الذهبية. وان كان الثوب الحرير على صبي غير بالغ يجب نزعه. وكذلك تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق الحلق حرام ومنعه و جب. والاسراف في الطعام والبناء منكر. وامثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها فقس عليها المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية ودكاكين الأسواق فلا تخلو عن منكر مكروه أو محرم[٣٤].

والباب الرابع من كتاب الامر بالمعروف يختص بأمر الامراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر. وفي هذا الباب يتجسد لنا صراع أبي حامد في آرائه السياسية والفقهية مع فيض. فقد ذكر الغزالي للأمر بالمعروف درجات، أوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة. ويرى انه لا يمكن مع السلاطين تجاوز الدرجة الثانية. اما اللجوء إلى القهر فغير جائز لأنه يثير الفتنة والشرّ. ولكن التخشين في القول مع الظالمين إذا كان شرّه لا يتعدى إلى الآخرين ولا يعرض لخطر غير القائل فقط فجائز بل مستحب. وقد كان من عادة السلف التعرض لمثل هذه الأخطار والمصاعب والمصائب لعلمهم بأنهم إن تعرضوا للهلاك كانوا من الشهداء[٣٥].

وفيض هنا يرى بالاستناد إلى الروايات (في الباب الثاني) التي سبق وأوردها أن حديث أبي حامد ليس صحيحاً فيقول: قد دريت من القرآن وأخبار أهل البيت(ع) عدم جواز ذلك ونهيهم عليهم السلام عن أن يذل المؤمن نفسه وان يتعرض لما لا يطيق[٣٦]. ومن هذه الروايات عن الامام الصادق(ع) مضمونها: «من تعرض لسلطان جائر لم يؤجر عليها ولم يرزق الصبر عليها». وعنه أيضاً مضمونه: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قيل له: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض لما لا يطيق». ولما سئل(ع) عن الحديث النبوي «ان أفضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر، ما معناه؟ قال: هذا على أن يأمره بعد معرفته (للمعروف والمنكر)، وهو مع ذلك يقبل منه[٣٧]. وقد حذف فيض كثيراً من الحكايات التي نقلها أبو حامد عن علماء السلف والصالحين في باب الدخول على الظالمين والتخشين في القول معهم واستشهادهم، الاّ واحدة لأنه لم يجد فيها الأخلاص وصفاء النيّة ورأىفيهاطلباً لشهوة خفية ورعونة كامنة أو طلباً لمزيد الجاه والقبول عند العامة علاوة على التعرض لنهي الله سبحانه والقائه نفسه في التهلكة بلا فائدة[٣٨]. وينقل أبو حامد عن أبي داود الطائي انه سئل أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر. فقال: أخاف عليه السوط. فقيل: انه يقوى عليه، قال: أخاف عليه السيف، قيل: إنه يقوى عليه، قال: أخاف عليه الداء الدفين، العجب. ويضيف فيض بل أخاف عليه نار جهنم لمخالفة الله سبحانه حيث قال جلّ وعزّ: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[٣٩]. ثمّ يورد فيض فيما بعد نفس الدليل ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ في كتاب رياضة النفس. فيحذف عدداً من الحكايات المنقولة عن المتصوّفة، ويرى أنّها لاتدلّ على حسن الخلق ولطافة الطّبع وإنّما على ذلّ النفس المذموم. وسنعرض للحديث عن الاختلاف بين الغزالي وفيض في التصوّف فيما بعد.

فالغزالي بعد أن يورد أحياناً حكايات كثيرة عن تعرّض المتصوّفة وأصحاب الجرأة للجائرين آنذاك كحسن البصري وحطيط الزيّات للحجّاج (والذي انتهى بقتل حطيط) وسفيان الثوري وبهلول لهارون الرّشيد، يختم كتاب الأمر بالمعروف بهذه العبارات:

«هذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلّة مبالاتهم بسطوة السّلاطين لكونهم اتّكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة. فلمّا أخلصوا لله النيّة أثّر كلامهم في القلوب القاسية وأزال قساوتها. وأمّا الآن فقد قيّدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وان تكلّموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

نجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حقّ العلم لأفلحوا، ففساد سايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد اء باستيلاء حبّ المال والجاه، ومن استولى عليه حبّ الدّنيا مر على الحسبة على الأرذال فكيف على الملوك والأكابر»[٤٠].

لا بدّ من الاشارة هنا إلى أنّ ماأورده الغزالي في هذا اب من التفحّش في القول مع الشيعة (الرّوافض) لانظير ي أيّ كتاب آخر من كتب احياء العلوم، ففي باب شروط تسب يرى أنّ الشرط الأول التكليف والشرط الثاني يان وأمّا العدالة وقد اعتبرها بعضهم الشرط الثالث فلا لها، وعليه فالاحتساب على الفاسق واجب أيضاً كوجوب هاد على شارب الخمر ضدّ الكفّار. والشرط الرابع وهو كون حتسب مأذوناً من جهة الامام ووالي المسلمين كما ظنّ بعضهم اه فاسداً، ويضيف: «والعجب أنّ الرّوافض زادوا على هذا الوا: لايجوز الأمر بالمعروف مالم يخرج الامام المعصوم وهو مام الحقّ عندهم. وهؤلاء أخسّ رتبة من أن يكلّموا بل وابهم أن يقال لهم: إذا جاءوا إلى القضاء طالبين حقوقهم في سائهم وأموالهم- أنّ نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج قوقكم من أيدي من ظلمكم، نهي عن المنكر وطلبكم لحقّكم ن جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظّلم وطلب لحقوق؛ لأنّ الامام الحقّ بعد لم يخرج». وربّما كان هذا التفحّش في القول الجارح، هو الذي دعا فيضاً إلى نقد جميع كتاب الأمر بالمعروف وردّه إلاّ القليل منه، والله أعلم.

ب ـ فلسفة الفقه

بعد أن وقفنا على مدى أهمية الفقه عند الغزالي وتعبده فيه ننتقل إلى علم الفقه عنده أي المنزلة التي وضع فيها الفقه بين بقية العلوم الدينية والفقهاء بين سائر العلماء وهنا يبدو الإختلاف بين فيض وأبي حامد أكثر عمقاً.

أول كتاب من أول ربع من أحياء علوم الدين كتاب العلم وعنوان الباب الثاني منه «في العلم المحمود والمذموم واقسامها وأحكامها» وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين، إلى أي حد هو، وتفضيل علم الآخرة. وهذا العنوان دليل واضح على هدف أبي حامد من هذا الباب والطريق الذي يوصله إليه. وفي الوقت الذي ينظر فيه إلى الفقه بعين اليأس والقنوط يقسم العلم إلى قسمين: المحمود والمذموم (ومنها فرض عين وكفاية) فإذا بلغ الشاب سن البلوغ وجب عليه ثلاثة: ما يعتقد به وما يفعله وما يتركه، وواجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وتعلم الطهارة والوضوء والصلاة وتعلم أن الكذب حرام وعدم النظر إلى غير ذي محرم وأمثالها وهكذا على الشاب البالغ التدريج في تعلم سائر الأفعال التي هي فرض عين بحكم شروط معيشته. وكذلك تعلم أكثر ما ورد في ربع المهلكات من كتاب أحياء علوم الدين وهي في رأي الغزالي من فروض الأعيان وقد تركها الناس لعدم مبالاتهم بها.

ثم قسم العلوم إلى قسمين شرعية وغير شرعية لبيان العلم الذي هو فرض كفاية، ويرى أن العلوم الشرعية هي التي لا يرشد العقل إليه ولا يمكن تعلمه إلاّ في مدرسة الأنبياء. وكلها محمودة ما لم يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة. والعلوم المحمودة أربعة أضرب: الأصول والفروع والمقدمات والمتممات. والأصول عبارة عن كتاب الله وسنة رسول واجماع الأمة وآثار الصحابة. والفروع ما فهم من الأصول بالقياس العقلي والفقهي وسائر موازين الاستنباطات والدلالات. وهذه الفروع منها ما يتعلق بمصالح الدنيا، وما يتعلق بمصالح الآخرة. وفروع الضرب الأول. ما تمتلئ بها كتب الفقه ويتكفل بها الفقهاء وهم علماء الدنيا. وفروع الضرب الثاني والمتعلقة بمصالح الآخرة هي علم أحوال القلب أو أعمال الجوارح. ويحتوي كتاب احياء علوم الدين بيان هذين الضربين. والمقدمات كعلم النحو واللغة. والمتممات كعلم التجويد والقراءات وعلم اصول الفقه وعلم الرجال. وكلها علوم شرعية ومحمودة ومن فروض الكفاية[٤١].

وهذه هي المرة الأولى التي يعتبر الغزالي في احياء علوم الدين الفقه علمًا دنيوياً والفقهاء من علماء الدنيا، ولكنها ليست الأخيرة فهو يشير في مواضع اخرى وفي كل مناسبة إلى هذه النقطة المهمة. ففي كتاب ذم الدنيا وفي مقام بيان حقيقة الدنيا واشغالها. يرى ان أهم حاجات الانسان هو القوت والملبس والمسكن والحرف والصناعات التي تساعده لتوفير هذه الحاجات هي خمسة: الفلاحة وتربية المواشي والاقتناص والحياكةوالبناء، وأصحاب هذه الحرف بحاجة إلى آلات يوجب

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

الحصول عليها ظهور أشغال جديدة كالنجارة والحدادة والخرازة، ثم إن الانسان حيوان اجتماعي يحتاج أولاً إلى أن يعيش مع زوجة وأولاد ثم مع غيره. فتحدث الحاجة إلى الحياة الاجتماعية وبناء المدن. ولما كان كل فرد لا يستطيع أن يتولى وحده تأمين كل الحاجات الضرورية. وجب تقسيم الأعمال ثم إن تخاصم الزوجين في المنزل وتنازع أصحاب الحرف والمواطنين في خارج البيت يحدث بالضرورة أشغالاً جديدة وكذلك فإن المرض والهرم وامثالها يفضي كل منها إلى مشاكل لابد من حلها. وبذلك يتولد صناعات جديدة كالمساحة والهندسة للمساعدة على تقسيم الأرض والماء بين الفلاحين حسماً للخلاف كما يظهر الجنود والحراس والجباة للضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق والمعتدين ويظهر بالتالي الفقه والفقهاء لمعرفة القانون الذي يضبط به سلوك الخلق الاجتماعي.

ويتولد عن الأشغال والحاجات المذكورة أشغال وحاجات أخرى كسك النقود والخزن والايجار والتردد بين المدينة والقرية والسرقة والكدية و.. كل ذلك نتيجة إجتماع الخلق وغفلتهم ولولا هذه الغفلة لتعطلت جميع أمور الدنيا[٤٢].

ويورد كذلك في كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات وأشدها اثارة وايقاضاً، بحثاً مسهباً في باب حقيقة المراقبة ودرجاتها. ويحذر الطالبين والسالكين من علماء الدنيا ثم يقول «ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الاعصار، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في إتباع الشهوات. وقالوا هذا هو الفقه. وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم. وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلّا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه[٤٣].

وكان أبو حامد يعلم أن اعتبار الفقه من علوم الدنيا حديث لا يهضم ولا يقبله الكثير من علماء الاسلام في عصره. وإن كثرة الفقهاء وشهرتهم وحاجة المؤمنين والعباد اليومية إليهم لن يترك له قدرة ولا قوة فاجتهد إلى دعمه بقوة البرهان وبيان سرّ حاجة الأمة والإمامة إلى الفقه. وكان برهانه: إن الله أخرج الخلق إلى هذه الدنيا ليتناولوا منها ما يصلح زاداً للمعاد. ولو تناولها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء؛ ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ويضبط أحوالهم ويمنع الظلم عنهم. واحتاج السلطان إلى قانون، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة فكان الفقيه معلم السلطان. «نعم ان الفقه متعلق بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فإن الدنيا مزرعة الآخرة. ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدين توأمان. فالدين أصل والسلطان حارسه، وما لا أصل له فمهدوم. وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان. وطريق الضبط في فصل الحكومات هو بالفقه. وكما إن سياسة الخلق بالسلطنة ليس في علم الدين في الدرجة الأولى بل هو معين على ما لا يتم الدين الّا به فكذلك معرفة طريق السياسة. فمعلوم إن الحج لا يتم الّا ببذرقة تحرس من العرب في الطريق، ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلّا بها شيء ثالث ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة»[٤٤].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن تجاه هذه النظرة لقدر الفقه في الذهن والذي يعرفه أبو حامد ويذكره، إنه ربما إستقام مثل هذا في أحكام الجراحات والحدود والغرامات، ولكن لا يستقيم في احكام الصيام والحج والزكاة والحلال والحرام. فلماذا يجب اعتبارها من اعمال الضبط والسياسة ومن العلوم والمعارف الدنيوية. ويجيب أبو حامد: إن اقرب ما يتكلم به الفقيه من الأعمال المعنوية والدينية هي الاسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام. فإذا تأملنا منتهى نظر الفقيه فيها وما يريده من الاسلام والصلاة عرفنا بقية الاحكام الفقهية بالقياس عليها. فالفقهاء لا ينظرون في كل ما ذكر الّا إلى صحة وفساد العمل الظاهري دون الجوانب الأخرى. فالإسلام في نظر الفقيه ليس يلتفت فيه الّا إلى اللسان واما القلب «فخارج عن ولاية الفقيه»[٤٥]. فمن تكلم بكلمة الإسلام وكان في قلبه كافراً، يحكم الفقيه بصحة اسلامه وطهارته وتجري عليه احكام الإسلام. وحتى اولئك الذين يظهرون الإسلام تحت ظلال السيوف حفظاً لرقابهم يقبل الفقهاء إسلامهم. الّا أنه إسلام لا ينفع في الآخرة. ولا يختلف هذا المسلم عن الكفار الحقيقيين وليس الحديث عن ذلك والحكم عليه من فن الفقهاء. وبعبارة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

، إن فن الفقه والداخل في احكامه هو الإسلام
ي وظاهر الإسلام. وهو المراد في هذه الدنيا وبه يميز
سلم وغير المسلم، وليس اكثر من ذلك. وكذلك الصلاة
حدث الفقهاء فيها عن الإخلاص والخشوع وإحضار
، ويكفيهم أن يتوضأ الشخص جيداً ويلبس لباساً غير
ب ويؤدي مخارج حروف الصلاة بشكل حسن لتكون
صحيحة، وإن كان في جميع صلاته من أولها إلى آخرها
إلى المحراب وقلبه مشغول في السوق. وكذلك إذا تهرب
كأبي يوسف من الزكاة باللجوء إلى الحيل الفقهية سقطت
ولا يؤاخذ لصحة حكمه. لأنه تعلم هذه الحيلة من الفقه.
وأما في الحلال والحرام، فالورع عن المحرمات عمل ديني
خوي لا دنيوي. وله اربع مراتب: الأولى الورع عن
حرمات الظاهرية والثانية الورع عن الشبهات (ورع
عالمين)، والثالثة الورع عن الحلال الذي يؤدي بالانسان
الحرام (ورع المتقين) والرابعة الاعراض عما سوى الله.
اقبال التام إليه (ورع الصدّيقين). ونظر الفقيه في الدرجة
ولى، اما بقية درجات الورع فخارجة من دائرة تصرفه
بقى خارج الاحكام[٤٦]. (ورد المزيد من شرح درجات
ورع في الربع الثاني من احياء علوم الدين، في كتاب الحلال
لحرام).

وهذا يعني إن علم الفقه في رأي أبي حامد علم دنيوي
دخل في علوم الطب والنجوم وامثالها. والفرق بينهما أن الفقه
علم شرعي أولاً وإنه لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق
لآخرة ثانياً أما الطب فلا يحتاج إليه الاّ المرضى. وثالثاً إنه
علم مجاور لعلم طريق الآخرة ومتمم له.

ولم يكن الذي دفع أبا حامد للحديث عن الفقه بالقسوة
هذه، قلة بضاعته منه أو عدم تقديره للشريعة وإنما تضلعه في
الفقه اوصله الى حدٍ رأى فيه ان المراد والمطلوب من الفقه يتم
بأقل مما هو رائج بين الناس. والأهم من هذا كان يرى
المدارس الدينية لا تخرّج سوى فقيه ومتكلم. فيتساءل: اذا
كان الفقه فرض كفاية، أليس فقه الباطن وعلم الاخلاق
فرض كفاية أيضاً؟ فلماذا ضيق الفقه الأصغر على الفقه
الأكبر؟ ولماذا لا يدافع أحد من المشتاقين الذين يقفون على
أبواب هذه الصناعة عن هذا العلم المظلوم والمهجور؟

فرواج الفقه في رأي أبي حامد ليس رواج التدين بل رواج
حب الدنيا. ويتساءل: لو أن سالكي طريق الفقه يسلكون
حقيقة سبيل الدين أليس البحث فيه ومعرفة آفات النفس
والشيطان ومكائدهما من طريق الدين، ويقول: إن العمل
بأحكام الصبر والشكر والرضا والزهد والقناعة والسخاء
وحسن الخلق والصدق والاخلاص والعمل بأضدادها كالبخل
والبطر والغضب والرياء والكبر والمداهنة والعجب والمكر
والخيانة وطول الأمل والقسوة وامثالها هي فرض عين في فتوى
علماء الآخرة. أما اليوم «لو سئل فقيه عن معنى من هذه
المعاني كالإخلاص أو التوكل أو الاحتراز عن الرياء لتوقف
فيه. مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة. ولو
سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات
من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى
شيء منها وإذا احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها»[٤٧].

وهل الخوف والزهد وهما رأس المال في الحياة الاخروية
السعيدة يحصلان من كتب الفقه. وهل استفاد الشافعي
«الخوف والزهد من كتاب السَّلَم والإجارة وسائر كتب
الفقه»[٤٨].

والذي يؤلم أبا حامد خاصة هو انتشار علم الخلاف والجدل
الذي دفع الفقهاء للغوص في البحث عن اختلاف آراء فقهاء
المذاهب المختلفة وبيان أسبابها. وكانوا يعقدون مجالس
المناظرة ويجدّون في ضرب الخصوم واظهار فضلهم، ويوهمون
الجاهلين أن هذا هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة
والذب عن الدين واتباع الشريعة. فحملوا بذلك أطناناً من
الرذائل والمفاسد واطلقوا عليه اسم الفقه والشرع. ثم يرتفع
صوت أبي حامد قائلاً «فأياك أن تحوم حول هذه الأمور
واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال الذي رد
الفقهاء كلهم إلى المنافسة والمباهاة»[٤٩]. ويقول ناصحاً: دع
الفرض الكفائي ما لم تبادر إلى الفرض العيني. واذا اردت أن
تنتقل من الفرض الكفائي إلى الفقه فابحث عن أقله في كتاب
المختصر للمزني، وحده الأوسط في كتاب الوسيط من المذهب،
ومفصله في البسيط. ولا تطف حول الخلافيات ولا تظن ان هذا
الكلام ناشيء عن العداوة الجاهلة بالعلم «واقبل هذه النصيحة
ممن ضيع العمر فيه زماناً وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

وجدلاً وبياناً، ثم الهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فاشتغل بنفسه»[٥٠].

ويبدو من خلال حديث أبي حامد نقطة أخرى في علم الفقه لابد من الاشارة إليها. وهي أن الطب علم يحتاج اليه المريض ولو كان وحده. اي لو إن الله لم يخلق سوى مخلوق واحد ومرض فلابد له من علم الطب. أما الفقه فيختلف عنه إنه «لو كان الانسان وحده ربما كان يستغني عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده...»[٥١]. كما إن أبا حامد وهو يتحدث في مقدمة كتاب احياء علوم الدين عن طب القلوب والارواح يرى أن الطب الروحاني الذي يتضمن المهلكات والمنجيات لابد منه للذين يعيشون وحدهم. ولذا يرى أنه أفضل من الفقه وكذلك لعلم الفقه هذه المنزلة بجانب سائر العلوم الشرعية.

إن عدم المبالاة بالرخص الفقهية والنظر إلى فتوى القلب والحذر من ارتكاب الاعمال المباحة حكاكات الصدور وحزّازات القلوب نتيجة منطقية لهذه النظرة. فهو يورد في كتاب آداب السفر قصة ابن المبارك وهي: إن رجلاً قال له وهو على دابة استأجرها للسفر أن يحمل له رقعة لأحد الافراد. فقال ابن المبارك، حتى استأذن المكاري فإني لم اشارطه على هذه الرقعة. «فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء أن هذا مما يتسامح فيه»[٥٢].

وكذلك نراه في كتاب الحلال والحرام وفي المثار للشبهة وهل هو حلال أو حرام حكمًا أو موضوعاً يوصي قائلاً: «ومهما اشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريبه إلى ما لا يريبه وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالاشخاص والوقائع... وما اعز مثل هذا القلب ولم يرد النبي(ص) كل احد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله»[٥٣].

ويشير أبو حامد هنا إلى حديثي الرسول(ص) اللذين اوردهما في كتاب العلم، احدهما: «الاثم حزاز القلوب» والثاني انه قال لوابصة بن معبد الأسدي «استفت قلبك وان افتوك وان افتوك وان افتوك»[٥٤]. وهو ما استلهم منه مولانا جلال الدين الرومي فقال:

آنكه گفت استفت قلبك مصطفى
آن كسى داند كه پر بود از وفا
هر كه را در جان خدا بنهد محك
هر يقين را بازداند او زشك

والآن وقد شرحنا رأي أبي حامد في الفقه لنرى ما رأي محسن فيض الكاشاني وهو الفقيه الخبير في علم فقه أبي حامد. ففيض يشارك أبا حامداً بقلبه ولسانه متسائلاً: لماذا توسع علم الفقه مرات عديدة وعرّض العلوم الأخرى للزوال. وكذلك يشاركه في أن الفقه تخلى عن معناه الصافي والعميق ليعبر عن معان ضيقة لا طائل تحتها. وهو يستنكر اقبال العلماء على الفقه والجدل بخروج القلب من ولاية الفقيه. ويؤكد على كلام أبي حامد بقوله: «إنّ جعل النية شرطاً في صحة الصلاة كما يقول الفقيه لا يجر الفقيه من ظاهر البحث إلى الباطن لأن النية امر خارج عن الاختيار فلا يتعلق بالتكليف، واذاكان تكليف فإنما يتعلق بعوارض النية وخصوصياتها من الإخلاص والرياء ونحوهما مما يبحث عنه علماء الآخرة وأطباء القلوب وليس من وظيفة الفقيه»[٥٥]. ومع كل ذلك فإنّ فيضاً لا يوافق أبا حامد في جوهر رأيه في الفقه، ويرى أنه لا ينهج الصواب فيه وليس على ما ينبغي ويقول إن الفقه علم شريف والهي ومستفاد من الوحي ومقتبس من مشكاة النبوة. ليترقى به العباد إلى المقامات المعنوية الرفيعة. ويتقربون منها لأن تحصيل الأخلاق المحمودة لا يتيسر إلا بأعمال الجوارح على وفق الشريعة الغراء، وتحصيل علم المكاشفة (اي المعرفة الحقيقة بذات وصفات الباري تعالى وبأفعاله وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة والمعرفة بمعنى النبوة والوحي والشيطان وكيفية معاداة الشياطين للانسان وكيفية ظهور الملك للأنبياء والمعرفة بملكوت السموات والارض والآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ومعنى لقاء الله والنظر إلى وجهه والنزول في جواره ومعنى حصول السعادة بمرافقة ساكني الملأ الأعلى و...). كل ذلك لا يتيسر إلّا بتهذيب الأخلاق وصفاء القلب وإنارة القلب بنور الشرع وضيا العقل. ولذا فإن على الإنسان أن يعلم أعمال الطاعة التي تقربه من الله وأعمال المعصية التي تبعده عنه. والمتكفل بهذين العلمين هو علم الفقه الشريف الذي أودع مفتاح هذا التميز

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

عباد والعاملين. ونبههم للمقـربات والمبعدات. هذا العلم يعتبره أهل البيت(ع) ثلث القرآن، فكيف لا يكون من الآخرة؟

مشكلة أبي حامد شأن آخر فكأنه لم يفرق بين الخلافة وية الحقـة التي من شروطهـا رعاية قلوب الرعية وبين طنة المتغلبة الجائرة التي لا تحكم إلّا على اجسادهم. لذلك يساوي بين الفقه الذي هو حارس القلوب وبين الحقوق رفية التي تنـظم الحياة المادية. وعلاوة على ذلك فإن فقه مة لا يعد من العلم حتى يقال إنه من علوم الدنيا والآخرة حاجة لتعيين أبعاده[٥٦].

هذا شرح للاستـدلالات والأحكـام التي أوردها فيض. بدأ بمناقشة القسم الأخير من حديثه. وكان أبو حامد قد رد مثل هذا الحديث في باب طبيعيات الفلسفة فقسم الفلسفة ى أربعـة أجـزاء: الهنـدسة والمنطق والالهيات والطبيعيات. تحدث فيما بعد عن المحمود والمذموم منها. وحينما يتعرض لطبيعيات يقـول: «بعضها مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس بعلم حتى نورده في اقسام العلوم»[٥٧]. والضعف ي مثل هذا الحكم إنه مساو لعدم الحكم. فحينما تكون حقانية العلم معياراً لكونه علمًا فإن عدد اقسام العلوم سيكون بعدد المقسمين ولكـل منها اسم بعددها. والتقسيمات القائمة على معايير اخلاقية (المحمود والمذموم) أو مدرسية (الحق والباطل) ستتعرض لهذا النقص. وسيختل الحكم عليها لأنها لا تكشف السـتار عن الإختلاف الذاتي والجوهري للأقسام. والضعف الثاني انه لم يميز كما يبدو هنا بين معنيي العلم: العلم بمعنى المعارف الصحيحة والحقة. والعلم بمعنى مجموعة من المعلومات المنسقة والموضوعة ففقه العامة أو طبيعيات الفلسفة إن لم تكن علمًا بالمعنى الأول فهي علم المعنى الثاني. وهذا يكفي لتكون من اقسام العلوم التي تدرس. فهي كالقضية المنطقية الكاذبة منها والصادقة فنحن لا نستطيع الا نعتبرها قضيةً لكذبها.

وهنا نصل إلى حديث فيض المهم في باب منزلة الفقه. معلم علم المقـربـات والمبعـدات ودليله أن الفقـه يعـرف الطاعة والمعصية، وهـذه المعـرفـة شرط العمل بالواجبات واجتناب المحرمات، وهو شرط لصفاء القلب الذي يـقرب مـن الله ويفتـح أبـواب الملكـوت. ولـذلـك يجب إعتباره من العلوم الأخروية ومن مقدمات واجب السلوك والتخلق باخلاق الله.

ونحن نذكر أن الغزالي لا ينكر أيضاً تقديم الفقه وضرورته للسلوك الاخلاقي والعرفاني. ولكنه يعتبره من نوع حراسة قافلة متجهة إلى الحجاز لاقامة مناسك الحج. فكيف يمكن للحجاج أن يصلوا إلى الكعبة إن لم يكونوا آمنين وفي راحة بال، واذا وصلوا فكيف يمكن أن يخلصوا قلوبهم لعبادة رب الارباب ويبتعدوا عن سواه، فحد الفقيه تعليم السـلطان قطع ايدي قطاع الـطرق وإخـماد غبـار الفتنة والتمرد. وكف شر أهل العدوان عن بعض وتخليص المدينة من المشاغبين والمفسدين والملحدين ليستطيع العبّاد والزهاد وسالكو طريق الآخرة دفع العدو الباطني وهم فارغو البال مما يجري في الخارج. والتخلص من قبضـة شيطان النفس بالتخلص من النـزاع مع الخلق. وزيادة صلح الباطن بصلح الخارج وسجن عدو الباطن كعدو الظاهر.

فالفقهـاء يوفـرون أقل شرط من شروط سلوك طريق الآخـرة ليس أكثـر فالحجـاج الذين يأمنون قطاع الطرق العرب قد لا يصلون إلى الكعبة، أو أن تكون قلوبهم في الكعبة مع معبـود آخـر، ففي الباطن مئات قطاع الطرق والأعداء يعرقلون مسيرة وسيرة الحجاج، والفقيه لا يعلم بها ليعالجها. وإذا وجـد البصـر والمبصر أمكن بكشف الغبار توفير رؤية أفضل. ولكن كشف الغبار لايوجد بصراً ولا يفتح عينا.

فليست غاية نظر الفقيه في الصـلاة والزكاة عند الغزالي أكثـر من تهذيـة الخلق والخوف من الله للكف عن العداوة بضـوابط الشرع على الأكثر. فهو يريد مجتمعاً هادئاً وخلقاً هادئين متأدبين بالآداب الفقهية ليمتنعوا عن بيع الحرام والظلم والـطعن وتـأجيج نار الفتنـة ورعاية حقوق الآخرين وعدم التعرض للمحرم من النساء والكف عن نهب الأموال وظلم الضعفـاء والأجـراء. والتأدب بهذه الآداب باعتبارها شريفة ومحترمة، وشرفهـا واحترامها لأن الله بانيها وواضعها، وتكرار العبادات يذكر بمبدأ تلك الآداب والعادات. ويقوله «إذا كان لفقه الدنيا حسن فتطهير القلب من العناصر-الغريبة والغفلة، للعمل بفقه الدين» وبعبارة أخرى إن الشريعة التي تتجلى في الفقه هي دين العوام. وهي في الدرجة الأولى تؤمّن لهم السعادة والـطمأنينة في حياتهم الدنيوية، هذه الطمأنينة والتي يحصل

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

عليها الخلق في أمور المعيشة بأنواع اخرى من الفقه في سائر الأديان وبالقوانين البشرية في المجتمعات التي لا تؤمن بالدين. فحياة غفلة البشر، أسرى الأكل والشرب والشهوة، تصبح اكثر تنظيماً وجاذبية في ظل مثل هذا الفقه والقانون. وتيسر فرصة لليقظين والمفلحين للاهتمام بتطهير أنفسهم والايقان بأن العالم لن يكون افضل مما هو عليه. وليست مسئولية التاريخ والخلق جميعاً على أحد. والله يدير العالم ويدبره بنار غضب أهله وشهوتهم، ولن تزول العداوة والخصومة والقتل والفساد بين الناس. فطالبوا الدنيا كثيرون، وهم يتجهون لتحسين معاشهم إلى فروض الكفاية (كالتدريس والوعظ والتفقه و...) بحيث لا تبقى حاجة لإفتاء الزهاد وكلامهم [٥٨]، ولذا على السالك أن يؤدي الفروض العينية بنفسه. ولولا أمر الله، ولو لم يكن الإنسان اجتماعياً لما كانت حاجة للفقه ولما كان العمل به واجباً. وهذا الرأي يجعل الطريقة أفضل من الشريعة وحظ العوام والخواص من الدين مختلفاً بل متفاوتاً ويشابه رأي أبي علي في الشفاء والنجاة والاشارات) فاين هذا الرأي من رأي فيض الذي يرى أن للعمل بالأحكام الفقهية تأثيراً مباشراً في صفاء الباطن وتنوير القلب ويعتبر الفقه مدخلاً للملكوت، يؤدي بسلم العروج إلى سطح المكاشفة. وعمل السالك بلا فقه وشريعة يبقى ناقصاً لا حاصل له.

وهنا لابد من التساؤل: أي صلاة يعتبرها فيض الكاشاني معراج المؤمن وأي صيام يصفه بالمقرِّب؟ هل هي الصلاة المشحونة بأنواع الملل والمشاغل وجسم بلا روح ولا عمل، أو هي الصلاة التي تنبع من القلب يحف بها الخشوع والتسليم. وهل هو الصوم المشحون بالغيبة والكذب والطعن والفضول والنظر إلى المحرمات او الصيام الذي يقترن بذكر الله تعالى والمجاهدة مع النفس والشفقة على الخلق وتطهير القلب من الشوائب الغريبة والجوارح من المحرمات؟ وكيف الحيل الفقهية؟ فهل للتهرب من أداء بعض الحقوق أو قبول الفقه لبعض المعاملات والعقود تأثير على السعادة الأخروية؟ وهل التهرب من دفع الخمس أو الزكاة باهداء الاموال للآخرين (والذي هو عمل فقهي ويقبله الفقه)، يوجبُ التقرب من الله؟ وهل التهرب من الربا (أو الربا المشروع ظاهرياً) وبعض الحيل الرائجة التي يقبلها فيض[٥٩] تضمن السعادة الاخروية؟ وما الذي يمنع فقهيا تذوق النساء وطلاقهن المذموم أخلاقياً، وكيف يوجب النجاة وفتح أبواب الملكوت. وكيف بالسفر والإفطار؟ فهل فيض الكاشاني في الحقيقة يرى الانسان حراً في العمل بكل الرخص الفقهية. وألّا يتعب نفسه ولو قليلاً، وألّا يظهر رذيلة من رذائله الباطنية وألّا يحذر المكروه وأن يلجأ إلى الحيل الفقهية للتهرب من أداء بعض الواجبات. وأن يؤدي صلاة صحيحة بلا روح، ويحج متاجراً ويصوم بجوف يمتلئ بالحرام (وكلها يقبلها الفقه) وألّا يتحلى بالصبر والشكر وأن يتصف بسرعة الغضب وقسوة القلب وحب كثرة الكلام والمباهاة بالعلم. والحقد والشهوة وكنز الذهب والجشع والطمع والبخل والأثرة وأن تسكره الغفلة والبطر. وألّا يفتح عينيه على التوبة والزهد والقناعة والصدق والإخلاص وألّا يخشى قلبه لحظة سوء العاقبة والخجل من الخالق. وهل الصلاة والصوم والحج التي يقبلها الفقه تمنع الإنسان من الوحشية والبهيمية. وهل تربية الإنسان الصبور الصادق المخلص الطاهر العفيف المشفق الورع المتواضع و.. من عمل الفقه؟ وكل من يحترم هذه الواجبات والمحرمات والرخص الفقهية يكتسب مثل هذه الفضائل؟ ثم من ذا الذي تنتظره الحياة الأخروية السعيدة من هذين الإنسانين؟ ثم أليس حديث أبي حامد بأن الحياة الدنيوية، تحتاج إلى قوانين تجعلها اكثر تحمّلاً وتنظيماً وأفضل للعيش فيها، وبالفقه وحده يمكن توفير مثل هذا النظام والضوابط. والأهم من هذا ان أبا حامد جعل للفقه منزلة أعلى مما هو عليه. فالنظم الذي يوفره الفقه والراحة التي يوجدها وحله للمشاكل وخاصة في المجتمعات البسيطة التي لم تتشعب ولم تتطور حيث تربط بين أبنائها العلاقات البسيطة والحاجات اليسيرة وتتحدى الطبيعة فيها المتجبرين والفاتحين ولا تخضع لاحتقارهم.وحيث لباس الفقه مناسب لقوام حياة الناس في القرية والمدينة يجعل تصور نوع آخر من العيش ونسج ثوب جديد للروابط بين الناس وتوفير احتياجاتهم الجديدة بعيداً عن أفق الخيال فلم يكن قد اكتشف قانون لحياة الجامعة والسوق والأسرة والحرفة والحكومة وكان أمر السلطان والفقيه يقوم مقام أمر العلم ويتوهم أن كل مشكلة تقع،تحل باصابع الأحكام الفقهية فللمحتكرين حكم فقهي لاستئصال احتكارهم ولكل من الزناة وقطاع الطرق والمفسدين

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

جحاف في البيع ولسائر الأشرار حكم فقهي لمعالجتهم أو
ناء عليهم. وأبو حامد يصل إلى تلك الراحة المطلوبة في
تلك الأحكام. فالاسلوب العلمي لحل المسائل والإدارة
لمية للمجتمع كانا مجهولين وكانت الإدارة المعروفة والمألوفة
الإدارة الفقهية فقط. اما اليوم هل يمكن الإنكار أن الفقه
ر قادر على إطفاء ضجيج الصناعة والتجارة وإخماد غبار
لاقات السياسية المتوترة وانه لا يستطيع أن يكبح جماح
ول مشاكل البشر المخيف؟. إن ما يستطيعه الفقه ويقدر عليه
و تعيين الحدود النهائية لميدان سعي الخلق بحيث لا
ستطيعون تخطيها. وإبداع العلم ما عدا ذلك.

فهل يمكن للفقه أن يحل عقدة تراكم السيارات في
لشوارع وانقطاع التيارات الكهربائية وضعف طاقتها وتلوث
لهواء وأثر امواج ثقافات الإذاعات العالمية على الأفكار،
والأمراض والأمية والهجرة الواسعة من الأرياف إلى المدن.
وتجمع الثروات الطائلة، وإدمان الشبان على المخدرات تلك
المشاكل التي تقض مضاجع انسان اليوم (أو تقض مضاجع
الإنسان في ايران اليوم على الأقل) وتحول نظره من الباطن
إلى الظاهر، وهل نتوقع من الفقه حل جميع مشكلات العالم
والحياة والمشاكل الحقوقية. فإي شيء في الفقه يوجب مثل هذا
التوقع؟ فالفقه لا يقول اكثر من انه يمكن حل مشكلة تراكم
السيارات بأي طريقة ممكنة على الّا تمس حقوق الإنسان
المشروعة. أو حل عقدة هجرة أهل الريف بشكل لا يؤدي إلى
الضرر. وما عدا ذلك ليس من شأن الفقه والفقيه.. وهذا معنى
تعيين الحدود النهائية لمساعي البشر (في المجتمع الاسلامي)
فعالم اليوم أكثر حاجة إلى المرشدين والمديرين والخبراء والعلماء
والمصلحين لحل مشاكلهم من الفقهاء والحقوقيين. وهذه الحاجة
وإن كانت دائمة فهي اليوم اكثر ضرورة وأهمية. ويستشم من
حديث أبي حامد أن جميع صعاب الحياة الجماعية تنبع من
الطمع والعداوة وتأجج نار شهوة الانسان وغضبه، واذا ما
صبت مياه القناعة والزهد على نار الغضب والطمع وخمد دخان
الخصومات المتعاقد زالت المشاكل والحاجة إلى الفقهاء. نعم قد
لا يبقى مشاكل ليحلها الفقهاء ولكن ليس معنى ذلك أنه لن
يبقى أية مشكلة. ولن يكون من السهل الحصول على الراحة
التي يطلبها أبو حامد للزهاد.

گمان مبركه بة پايان رسيد كار مغان
هزار بادهٔ ناخورده در رگ تاك است

إن النجاح الذي حققه الانسان في الانتصار على الطبيعة،
والعين التي تفتحت على اسرار العالم ببركة العلم التجربي
الميمون، والمصنوعات العجيبة التي قلبت جوهر الحياة
وحقيقتها جعلت من الحياة الاجتماعية لغزاً، فوضع القدم فيها
ووداع الراحة سواء والنفط الذي تصبه التكنولوجيا على نيران
غضب البشر وشهوتهم أجج جحيمًا يحتاج كبح جماحها إلى
زبانية آخرين.

ربما كانت القناعة والحياة البسيطة في المجتمعات القديمة
البسيطة تقلل من حجم المشكلات الرئيسية، والانسان
يستطيع أن يحل عقدة حياته بقطعة من الارض ودابة واليسير
من الذهب والفضة، ولا يتعرض للمصاعب الشديدة إلّا في
النزاعات والفتن،اما اليوم، فقد أصبحت الحياة نفسها عقدة
عويصة، واصبح الانسان في وضع آخر، ولا يمكن حل هذه
العقدة بالحدّ من الخصومات الحقوقية والنزاعات العدوانية.
وليس العدل اليوم اعادة الحق للمستحقين وكف يد الجائرين
واجتناب الآثام والمعاصي الكبيرة فقط بل بمعنى حل مشاكل
الانسان وتدبير أموره بالعلم والبصيرة والوصول إلى الكمال في
الحياة الاجتماعية.

يقول فيض إن الحكومة والخلافة الحقة ترعى القلب،
والسلطنة الجائرة لا تحكم الا على الجسم. نعم ورعاية القلب
لا تتيسر إلا بتهذيب الباطن والتمهيد لنوع من المعيشة
الخارجية ييسر الراحة والطمأنينة للباطن. فكيف يمكن
الحصول على ذلك بما يجوزه الفقه ويقبله الفقهاء من العبادات
والمعاملات فقط؟ إن التحريم والايجاب أمر، اما تنظيم المعيشة
فيحتاج إلى ما هو أهم من الامر، وذلك الاسلوب العلمي.
والنهي يختلف عن الاسلوب، ولا يأخذ الفقه مكان العلم.
والفقيه يقدّر صحة وفساد العمل الظاهري فقط ثم يفتي برده
أو قبوله. والفقه لا يتجاوز «الفعل المكلف». اما الذي يوفر
الصلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة فهو الصحة الباطنية
والاتقان الداخلي للاعمال وليس مِسْك الخارج وعفن الداخل.

ولابد من أن ننصف أبا حامد فنقول إن علم الفقه الذي
هو وليد علم المجتمع عنده ويتلاءم معه. ادق من علم الفقه

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

عند فيض وينم عن خبرة اكبر. فليس في آثار فيض ما يدعو إلى معرفة الحياة الجماعية واركانها وحاجاتها ومادتها وصورتها. بينما اوضح أبو حامد في مواضع عديدة أنه قرن الأيام بالآلام في البحث عن جوهر الحياة الدنيوية ومقوماتها وكان أكثر نجاحاً في اكتشاف سر حياة الخلق وخيوط الغفلة الخفية التي تقيد أيديهم وأرجلهم.

ويحسن أن نورد في آخر هذا البحث غزلاً من روح الغزالي لفيض هاجم فيه الفقهاء والوعاظ والزهاد واعتبرهم في مرتبة واحدة.

این فقیهـان که به ظاهـر همـه اخـون هماند
گر به باطـن نگـری دشـمـن ایمـان هماند
جگـر خویش و دل هم زخـمـه می‌خایند
پوسـتین بره پوشیده و گرگان هماند
تا که باشـنـد در اقـلیم ریاسـت کامـل
در تکـسـت هم و جوینـدهٔ نقصـان هماند
واعـظان گرچـه بمیغانـد و سخنـدان لیکـن
گفـتـن و کردن این قوم کجـا آن هماند؟
آه ازین صومـعـه‌داران تهـی از اخـلاص
کز حسـد رهـزن اخـلاص مریدان هماند

الثاني: التصوف

الف: نقد الجهل والغرور الصوفيّين.

مما لا شك فيه أن الغزالي عالم صوفي. فبعد أن فرغ من دراسة مذاهب الصوفية والباطنية أقبل على التصوف، فقرأ كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي وآثار الجنيد والشبلي وأبي يزيد وغيرهم، وتقرب من دنيا هؤلاء الطاهرين، وحينما رأى أن العمل لا يتحصل بالعلم فقط، قضى عشر سنوات بالعزلة والخلوة والرياضة ومجاهدة النفس وتصفية القلب «فانكشف له في هذه الفترة أمور لا يمكن احصاؤها وعلم يقيناً أن «الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى وان سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق واخلاقهم أزكى الاخلاق... وجميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة»[٦٠].

ومع كل ذلك فهو ينتقد التصوف والمتصوفة. فالتصوف عنده عبارة عن «تجرد القلب لله واستحقار ما سوى الله»[٦١]. والظاهر أن الغزالي يضع قدمه في وادي التصوف الواسع بعد أن يسبح في بحر العلم المتلاطم. فلا يجد من يعرّف التصوف بأنه مخالف لكسب العلم. ولما كانت هذه الشبهة تعكر أذهان بعض البسطاء والبطالين في عهده (وبعده)، فقد بادر أبو حامد إلى نقده ورده في احياء علوم الدين. فيذكر في موضع من كتاب العزلة اختلاف العلماء والمتصوفة في أن «الصوفي لا يتكلم إلّا عن حاله، فلا جرم أن تختلف أجوبة الصوفية في المسائل المشابهة والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه، ولو سئل من الصوفية مائة لسمع منهم مائة جواب... ولكن اذا اشرق نور العلم أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف»[٦٢] أي لا يجوز الاعتماد على أقوال المتصوفة ما لم يكن علم وما لم توضع أقوالهم في ميزان قضاء العلماء. ولا يمكن أن تصل قافلة السعادة إلى مقصدها. ونراه في موضع آخر يعتبر طريقة الصوفية محفوفة بالخطر ومدعاة للآفات رغم حسن ظنه بها، وأن وصولهم إلى الله ممكن ولكنه بعيد جداً، ورغم قوله بالتشابه في تلقي الالهام والعلم بين الانبياء والمتصوفة فإنه يدعو السالكين إلى تقديم العلم على التصوف. ويورد في كتاب عجائب القلب، وهو اوّل كتاب في ربع المهلكات من احياء علوم الدين، فصلاً تحت عنوان «بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظّار» فينظر بعين النقد إلى الفرق بين المتصوفة والعلماء (النظار) في طلب الحقيقة ويحكم بينهما بقوله: ان الالهام والوحي يختصان بالأصفياء والأولياء والأنبياء حيث يفتحان عيونهم على الحقيقة ويملآن قلوبهم بالعلم واليقين بغير مقدمة وحيلة وتعلم واجتهاد، واما الاجتهاد والاستدلال فطريق العلماء حيث يكتسبون العلم ذرة ذرة وقطرة قطرة. «فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الالهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الاقاويل والأدلة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى. ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

كفـل له بتنـويره بأنـوار العلم... فليس على العبـد الاّ ستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة مع الارادة الصادقة، عطش التام والترصّد بدوام الانتظار، لما يفتحه اللّه تعالى الرحمة»[٦٣].

فهم يرون أن على الانسان تفريغ القلب من علائق الدنيا أهل والمال والولد والوطن والعلم والولاية والجاه وأن يستوي ـ ـده وجـود كل شيء وعدمه. ثم يخلو بنفسه في زاوية، ولا ـتت فكره بقراءة قرآن أو حديث أو كتب أخرى، ويجتهد ألاّ طر بباله شيء عن وعي وادراك حتى ينتهي إلى حالة إن رك الذّكر، يرى وكأن الكلمة جارية على لسانه، ويواظب قلب عليه، ثم يواظب عليه القلب إلى أن يمحّي عنه صورة للفظ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه، وعندئذ تهب عليه فحات رحمة اللّه. وتمنح قلبه الذابل حياة الربيع وطراوته، واذا صدقت ارادته وصفت همته ولم تشغله علائق الدنيا ولم تجاذبه لشهوات لا تلبث لوائح المعنى من ان تلمع في قلبه، وتكون كالبرق الخاطف يثبت حينا ويزول حيناً آخر. وقد يعود سريعاً أو بطيئاً. وقد يقتصر على فن واحد وقد يتلون ويختلف، ومنازل أولياء اللّه وفنون تصرف يد اللّه في قلوبهم ونفوسهم لا تعد ولا تحصى.

امـاالنظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكـانه. ويعتقدون بافضائه إلى هذا المقصـد على النـدور، ولكن طريقه وعر، وثمرته بطيئة الوصول، واستبعدوا استجمال شروطه وقد يمرض البدن خلال هذه المجاهدة ويختلط العقل ويفسـد المـزاج. وبـما أنـه لم يسبق بعلم فقد تنشب بالقلب خيالات فاسدة ولا يتيسر العلم إلا بعد مدة طويلة فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة. ولو أنه أتقن العلم قبل الدخول إلى وادي المجاهدة لانفتح له فسـاد هذا الخيال منذ ابتداء أمره، لذلك قال ذوو الاعتبار والنقـاء لابد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه. ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما ينكشف وتنفتح من معنويات بالمجاهدة[٦٤].

وأبو حامد وان أورد فيما بعد مثال اهل الصين وأهل الروم لبيان الفرق بين علمي الالهام والتعلم، ورغم أنه يعقد فصلاً يقـول فيه بصحة طريق الصوفية الاّ أنه مما لا شك فيه انه يذهب إلى أنه لايمكن الوصول الى الحقيقة عن طريق التعلم المألوف والمعروف. وان له طرقاً أخرى، وليس طريق سلوك الصوفية هو السبيل الوحيد اليها ويمكن دراسة جميع العلوم وحتى الرياضية والفقهية منها عن هذا الطريق.

ولابد من القول أن الجلوس في الخلوة وتفريغ القلب مما حولـه وحتى من القرآن والحديث، والاقتصار على ذكر اللّه، بانتـظار نفحـات الـرحمن، هو ما فعله الغزالي بعد أن ترك المناصب والمكاسب الدنيوية وانفلت من قبضة العلائق المادية الدنيّة عملاً بوصية متبوع مقدم من الصوفية، وخلا بنفسه في زاوية، ينظف لباس النفس القذر بماء الذّكر، ونار المجاهدة. كما صرح بذلـك في كتـاب «ميزان العمـل»[٦٥]. ويرتفع صوت الغـزالي بلوم اولئك المتظاهرين بالصوفية، حينما يرى أنه لا أنس لهم باللّه وبذكره في الخلوة، ولا مجاهدة مع النفس وليس لهم نصيب من التصـوف سوى البـطالـة والكسـل والكدية والجهل. فاستطابوا الرباطات، وتشبهوا بالمتصوفة الحقيقيين في حديثهم، ولبسـوا المـرقعات وبادروا إلى السياحة والاسفار البعيدة. يأخـذهم الـوجـد بكثـرة الاتبـاع حولهم، فيظنون بأنفسهم خيراً، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ويعتقدون أن كل سوداء تمرة»[٦٦] وان كل شحـم ورم ويصرح قائلاً : «الامور الـدينية كلهـا فسـدت وضعفت إلاّ التصوف فإنه قد أُلحـق بالكلية وبطـل» وهو لا يعتبر المتظاهرين بالصوفية من سنخ المتصوفة، ذلك انه لو تُصوّر صوفيّ فاسق لتُصور كافر وفقيه يهودي.فلا يحق لمثل هؤلاء المتصوفة أن يأكلوا من الأموال التي وقفت على الرباطات،لأنها للصوفي الحقيقي «الصالح العادل» وليس لآكلي الحرام والمزورين الذين يتكـدون باسم التصوف ويرى أبو حامد أن سفرهم وإن كان لا يخلو من الاشكال في نظر بعض الفقهاء فلا بأس به ما كفوا عن الناس شرهم وعن الخلق خداعهم[٦٧].

هذا إذا كان الصوفي فاسقاً.. لا يتفق اعماله مع افكاره: ولكن ما شأن الصوفي في العالم؟ فهل يحق للذي يحصّل العلم ويشتغل في خانقاه بسلوك الصوفية ان يسمي نفسه (صوفيّاً) وهـل يحل له أن يأخذ من الاموال الموقوفة للصوفية ويأكل منهـا؟ نرى أن المسـألـة هنـا خرجت من حد المدح والذم الاخلاقي. ودخلت في ميدان المنع والتجويز الفقهي. ان طرح

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

هذا السؤال الفقهي والاجتهاد للجواب عنه يدل على مدى الصراع بين «العلم» و« التصوف» في عهد الغزالي ومدى عمق وقبول شبهة تناقض «الصوفي العالم». ويورد الغزالي في كتاب الحلال والحرام من ربع العادات، ضمن «مسائل متفرقة» مسألة أخرى يقول فيها: إذا أوصي بمال للصوفية، فمن الذي يجوز أن يصرف إليه؟ وأورد في الجواب عنها خمس صفات ظاهرة للصوفي هي الصلاح والفقر وزي الصوفية وان يكون ساكنا في الخانقاه ولا يكون مشتغلاً بحرفة، واما الصوفي المتزوج الذي يذهب تارة إلى المنـزل ويقيم تارة في الخانقاه فليس من الصوفية. ويقول في مسألة أخرى: اذا وقف على رباط الصوفية مال فهل للفقيه إذا كان على زيهم وأخلاقهم النزول عليهم؟ وأن يأكل مما وقف للخانقاه؟ ويجيب بالايجاب لأن كونه فقيهاً لا ينافي كونه صوفياً. ومن يعرف التصوف يعلم بأن الجهل ليس بشرط في التصوف. ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحمقى الذين يقولون: إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب...»[٦٨]. وتأكيد أبي حامد على أن الجهل ليس بشرط في التصوف لا يخلو من عبرة مبينة ومثيرة للانتباه فهو في الحقيقة يومئ بذلك إلى شخصيته بكونه عالماً صوفياً. وانه اختار طريقة المتصوفة الصادقين ويدافع عن الطريق الذي سلكه والمنزل الذي ألقى فيه رحله.

وكما أن أبا حامد في نقده الصوفي يزيل عنه الأدران ويفضل التصوف العلمي فقد كان في نقده للمتصوفة جريئاً وشجاعاً ودقيقاً وكان يقبح المتظاهرين بالتصوف. ففي كتاب ذم الغرور من ربع المهلكات يعرّف فِرَقاً كثيرة من المتصوفة المغرورين والمحجوبين والمزورين بصفاتهم. ففرقة مغرورة بزي المتصوفة وهيئتهم ومنطقهم يسمعون ويرقصون ويجلسون على السجادات مع اطراق الرأس، ويتنفسون الصعداء ويخفضون الصوت في الحديث. وفرقة أخرى يلبسون المرقعات النفيسة والثياب الرقيقة ويجلسون على السجادات الملونة ورضوا من التصوف اللون والثوب. وفرقة أخرى إدعت مشاهدة الحق والملازمة في الوصول إلى القرب. وفرقة أخرى وقعت في ورطة الاباحة ورأوا الشرع في النور وسوّوا بين الحلال والحرام. وفرقة أخرى جاوزت هذا الحد واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وإدّعت الوصول إلى مقامات الزهد والتوكل والرضا والحب. وفرقة أخرى ضيقت على نفسها في أمر القوت واجتهدت في الوصول اليه حتى أهلت تفقد القلب والجوارح. وفرقة أخرى من المتكبرين تظاهروا بالتواضع فتصدوا لخدمة الصوفية. وفرقة أخرى اشتغلوا بالفحص اللفظي والعلمي عن عيوب النفس وآفاتها بدلاً من المجاهدة العملية مع النفس وتطهيرها. وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة وابتدأوا سلوك الطريق وكلما تشمموا أقل رائحة من المعرفة فرحوا وأعجبوا واغتروا بها. وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء ايضاً ووصلوا إلى منتصف طريق القربة فظنوا أنهم وصلوا إلى وادي نهاية القربة ويضربون طبل انا الحق ويدعون ما لا حاصل له[٦٩]. هذه صفات المتصوفة في عهد أبي حامد، والذين وجودهم دليل على عدم وجود التصوف. وبقول مولانا:

ای بسا زرّاق گول بی وقوف
از ره مردان ندیده غیر صوف
ای بسا شوخان ز اندك احتراف
از شهان ناموخته جز گفت ولاف
حرف درویشان بسی آموختند
منبر و محفل بدان افروختند
یا به جز آن حرفشان روزی نبود
یا در آخر رحمت آمد رهنمود
لاف شیخی در جهان انداخته
خویشتن را با یزیدی ساخته
بی‌نوا از نان و خوان آسمان
سوی وی نندا خت حق یك استخوان
او ندا داده که خوان نهادهام
نایب حقّم خلیفه زادهام
خانه داماد پر آشوب و شر
قوم دختر را نبوده زان خبر

وكان مما يضيق له أبو حامد ايضاً الشطح والطامات التي يطلقها الوعاظ تبعاً للمتصوفة ويعتقد بأن «هذا الفن من الكلام عظيم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من اهل الفلاحة فلاحتهم واظهروا مثل هذه الدعاوي» ويعني بالشطح الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع اللّه والوصال،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

الوصول إلى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشافهة بالخطاب كقول حسين الحلاج أنا الحق او ما نقل عن أبي يزيد البسطامي والذي كان يقول سبحاني سبحاني ثم يورد أبو حامد عدداً من هذه العبارات المضرة مع الافتاء بقتل مُرددي امثال هذا الشطح، واعتبار أن قتل واحد منهم يساوي احياء عشرة. ويشك في صحة اسناد الحديث الذي حكي عن أبي يزيد، واذا ما سمع منه، فلعله كان يحكيه عن الله كما لو قيل «انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني» (والنوع الآخر من الشطح هو كلمات وجمل غير مفهومة لها ظواهر رائعة جميلة وليس وراءها طائل سوى أنها تشوش القلوب وتحير الاذهان وتحمل على أن يفهم كل واحد منه على مقتضى هواه وطبعه).

واما طامات المتصوفة، فعلاوة على تزيين الظاهر ومزج الكلام بالدعاوي العريضة في العشق الفاتن فإنها تصرف الفاظ الشرع عن ظواهرها وتميل إلى التأويلات البعيدة، فهم يقرأون مثلاً آية ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ويشيرون إلى القلب قائلين انه هو المراد بفرعون الطاغي الذي يجب محاربته. أو يقرأون ﴿ألق عصاك﴾ ويقولون ما تتوكأ عليه مما سوى الله فألقه.

فمثل هذا الاقوال الباطنية «لا فائدة منها سوى هدم الشرائع وتنزيلها على رأي وميول أصحاب الرأي» وهو ما شرحه الغزالي في كتاب المستظهريّ ورد عليه بالتفصيل واعتبره في احياء علوم الدين معادلاً لوضع الحديث[٧٠]

الا أن فيضاً كان اسرع مبادرة واشد غيرة من أبي حامد في ذم المتصوفة والتصوف. فأينما أورد أبو حامد ذما لهم نقله. ولكنه كان يهمل ما استطاع كل ما ينم عن مدح لهم، أو لا يتركه بلا جواب. فكل ما ورد من المسائل المتفرقة في كتاب الحلال والحرام من احياء علوم الدين (وذكرناه) لم ينقله من الأصل. ورأى أن كثيراً من الحكايات المروية عن الصوفيين غير جديرة بالنقل. وفي الموضع الذي تحدث فيه أبو حامد عن اصناف المغترين وذكر فيه المتشبهين بالمتصوفة المغرورين قال فيض: «واي فضل وكرامة للصادقين من الصوفية حتى يكون للمتشبهين بهم؟ فإن اكثرهم من اهل البدع من السماع والرقص والجهر من القول في الدعاء و...»[٧١]. وفي كتاب عجائب القلب حيث يتحدث أبو حامد عن الإلهام والتعلم ويورد عنوان «بيان الفرق بين الإلهام والتعلّم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار.. يستنكف فيض حتى عن ايراد كلمة الصوفية في هذا العنوان ويستبدلها بـ «المجاهدين».. كما يورد في النص عبارة «أهل المجاهدين» بدل «الصوفية». وحينما ينقل أبو حامد في كتاب (كسر الشهوتين) رواية عن الامام الصادق،عليه السلام، في عقوبة النفس والتي يقول فيها «اذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها، وان أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً يسارع فيض إلى القول: «لايشبه هذا بكلام مولانا الصادق(ع) بل هو بكلام الصوفية أشبه»[٧٢] وهذه الاشارة كافية لذم وردّ هذا الحديث.

كما حذف فيض ما أورده أبو حامد من حكايات ومكاشفات وكلمات عن المحبين والعاشقين والواهين بالله في آخر كتاب المحبة والشوق والرضا والانس من ربع المنجيات لأن بعض هؤلاء المحبين لا وثوق بهم ولا بحكاياتهم المروية عنهم وكان بعضها يناقض بعضا، وأي فائدة في سماع ما هو «من قبيل الشطح والطامات وما صدر على سبيل الزهو والرعونات»[٧٣].

كما حذف فيض كل ما أورده أبو حامد في كتاب الفقر والزهد من أحاديث الصوفية، وقال: «وقد ذكر أبو حامد هنا فصلاً في بيان أحوال السائلين. وأورد فيه من أقوال الصوفية وما كانوا يفعلون، واذ لا وثوق بهم وبما كان يصدر عنهم فلنعرض عن ذلك، ومن أراد الاطلاع على حقيقة الحال في الفقر والزهد فليطالع ما أوردناه في آخر الشطر الثاني من هذا الكتاب من كلام الصادق،عليه السلام،ومحاجته مع الصوفية. وهذه المحاجة التي رويت في كتاب الكافي عن علي بن إبراهيم بين الامام الصادق وسفيان الثوري من أعاظم صوفية عصره[٧٤]. وذكرها فيض في آخر كتاب الفقر والزهد من المحجة البيضاء. إن عدم اعتماد فيض على فرقة المتصوفة وعدم اعتقاده بهم يتجلى في كل اجزاء كتاب المحجة والاوضح من هذا انه لا حاجة لأكثر مما نقل منه. وسنذكر في قسم اخلاق المتصوفة نماذج من الحكايات والروايات الصوفية التي وردت في احياء علوم الدين، ولم ينقلها فيض في المحجة البيضاء ليتبين سر كره بل استياء فيض منهم.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

والحقيقة ان الذي دعا فيضاً ليكون قاسياً معهم وغير راض إلى هذا الحد عنهم اولاً عدم وفائهم وولائهم لسلالة محمد(ص) وأهل بيته الطاهرين المنتجبين وكذلك كثرة المباهاة التي تموج في أقوالهم ورائحة الكبر والرعونة التي تؤذي مشام العقل. وهو في ذلك لم يستثن حتى محيي الدين بن عربي الذي كان يمدحه بوفور العلم ودقة النظر والسير في دنيا الحقائق ويذمه لدعاويه في مدح نفسه وانتخابه الاستغناء عن معرفة امام زمانه ويقول: «هذا الشيخ الذي هو أكبر المتصوفة ومن أئمة ورؤساء اهل المعرفة يقول في الفتوحات لم اطلب من الله ان يعرفني على امام زماني ولو اردت لعرفني» ثم يذمه ذماً بالغاً بسبب استغنائه هذا ويقول لذلك خذله الله واسلمه للشياطين. ليبقى حائراً في دنيا العلوم. ولا يقول حديثاً قويماً في أي علم من العلوم الشرعية. وينسج الأقوال المتناقضة التي تجعل النساء والاولاد يضحكون عليه. فهو مع كل دعاويه العريضة والطويلة في معرفة الله ومشاهدة المعبود وطوائف العرش والفناء في بحر التوحيد يظهر من الشطح والطامات والرعونات ويتحدث مع الله بغير ادب بشكل لا يرضى عنه قلب أي مسلم[٧٥]. وكان فيض يكره أحياناً ذكر أسماء كبار المتصوفة، واذا اعجبه كلامهم، واورده، اسقط أسماءهم. فحينما يروي الغزالي في كتاب الصبر والشكر عن حسين بن منصور الحلاج انه حين كان يُصلب سئل عن التصوف ما هو فقال: هي نفسك ان لم تشغلها شغلتك. اورد فيض هذه الرواية دون الاشارة إلى اسم قائلها[٧٦]. وكان فيض شديد الحساسية تجاه حسن البصري وسفيان الثوري، وكان يحذف اسميهما مااستطاع. وينقل في باب حسن البصري رواية: أن الامام علي،عليه السلام،يقول عنه: هذا سامري هذه الامة.[٧٧]

ب: الاخلاق الصوفية

إن حسن ظن أبي حامد بالمتصوفة والتأدب بطريقتهم دعاه لشحن احياء علوم الدين بحكاياتهم وآرائهم في باب الفقر والزهد والصبر والتوكل والحب والرضا والسماع والوجد ورياضة النفس وكبت الشهوات، وتأييد تقشفهم وعزوفهم عن الدنيا وكبح النفس وهو ما دعا ابن الجوزي لاتهام أبي حامد بقوله «ما أبخس ما باع الفقه بالتصوف» ويتهمه فيض الكاشاني بالتشوش فيدعوه بفاسد العقل والكياسة. ويعتبر بعض رواياته «ترهات» فيهملها.

ولا شك في ان دقة أبي حامد الشديدة في تطهير الضمير مما سوى الله وخشيته الواسعة من سوء العاقبة وشوقه الأكيد بتشييد صرح القلب، وكسب رضا المعبود، وصدقه وصفائه وهمته السامية في هذا الطريق يثير النفس ويجري على اللسان آيات الشكر والثناء، إلّا أن هذا الشوق والحذر والدقة كان سبباً لأن يقضي عمراً في اضطراب ومرارة وفقر، وان يضيّق على نفسه الحياة بممارسة آداب الصوفية وبدعهم المنكرة وأن يعيش بعيداً عن اللذائذ والمباحات بشكل سلبه الاعتدال في القول والعقل ودفعه لابداء الآراء الغريبة البعيدة التي لا تتفق مع العقل.

ونبدأ برياضة النفس حيث يقول أبو حامد في بيان «شروط الارادة ومقدمات المجاهدة» حينما يؤمن الانسان باليوم الآخر ويحتقر النعم واللذات الدنيوية ويحترف بجد صياغة الحياة الأخروية. والشرط الأول إثارة الرغبة والإرادة علاوة على شروط أخرى ينبغي على السالك أن يؤديها قبل سلوك طريق الآخرة. وعند سلوكه لابد له من معتصم يتمسك به وحصن يلجأ اليه، وعليه وظائف وآداب لابد من ملازمتها. أما الشروط التي يجب تقديمها والتي تعود إلى تلك، فهي أن يرفع السالك الحجاب الذي بينه وبين الحق، ولا يتيسر هذا إلا بفراغ القلب من المال والجاه والتقليد والمعصية. وحتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ويخرج عن الباقي. وان يتخلص من آفات المنصب والشهرة بالتواضع وايثار الخمول والهرب من أسباب الذكر، ويتعاطى أعمالاً تنفر قلوب الخلق منه. وأن يترك التعصب للمذاهب. ويصدق بمعنى قوله تعالى «لا اله الا هو محمد رسول الله» تصديق ايمان. وان يفرغ قلبه من تقليد هذا وذاك وعبادة الهوى وعليه أن يطلب كشف حقيقة تلك العقيدة من المجاهدة لا من المجادلة لأن كل تقليد وتعصب قيد للسلوك فليس للمريد الانتماء إلى مذهب معين أصلاً. وعليه في الرتبة الأخيرة ان يرفع الحجاب بالتوبة ورد المظالم وارضاء الخصوم. ثم يحتاج بعد أن يؤدي هذه الشروط ان يصبح جديراً للاقتداء بامام يعتصم به ويتمسك بيده تمسك الأعمى على شاطئ النهر. فيفوّض أمره إلى شيخ ولا يخالفه في ورده ولا صدره، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

لم يكد يصل أبو حامد في حديثه إلى وسطه حتى قاطعه فيض معارضاً له في نقطتين مهمتين: الأولى التقليد والتعصب والثانية تفويض الأمر لشيخ فيقول: صحيح أن التعصب لمذاهب أهل السنة-في فروع وأصول حكمه هو ما أورده أبو حامد. أما عندنا فإن شرط الهداية التمسك بأهل البيت والتعصب لهم يزيد من يقين السالك واذا جاز على الشيخ الخطأ فربما يكون افساده اكثر من اصلاحه. بل الحق انه لا يجوز الاعتماد في الاعتقادوالعمل إلّاعلى معصوم أو على الذين أذن لنا المعصومون في الأخذ عنه من شيعتهم.

ويضيف أبو حامد: وعلى الشيخ أن يحصن المريد، ويدفع عنه قواطع الطريق، ولهذا الحصن أربعة أعمدة: الخلوة والصمت والجوع والسهر. فإن الجوع يصفي القلب وينوره ويقوي المريد على السهر. والعزلة عن الخلق تسهل الصمت، والخلوة ضبط للسمع والبصر. وصفاء وطهارة للقلب. ثم يبدأ طريق طويل للمجاهدة مع النفس . وحينما يخلي المريد الباطن من آثار الرذائل الظاهرة. يلتفت إلى جذور هذه الآثار وأصولها فيجتهد في قطع أصول الفساد وحب الدنيا وتوابعها كالتشوف إلى المعاصي والالتفات إلى الخلق وحب المال والجاه و... فيواجه الواحدة بعد الأخرى ويشتغل بالمجاهدة لازالتها. فإذا رأى الشيخ علائم الضعف أو زوال الرذائل، يلزم المريد السالك زاوية ويوصل إليه قدراً يسيراً من القوت الحلال ويلقنه ذكراً بسيطاً مثل (اللّه اللّه أو سبحان اللّه)، فلا يزال المريد يواظب على ترديده حتى تسقط حركة اللسان وتبقى الكلمة كأنها جارية عليه. ثم تسقط عن اللسان وتبقى حقيقة معنى الذكر لازمة للقلب وحاضرة معه. ولكن عقبات كثيرة في الطريق واخطاراً ومهالك تهدده، يجب على الشيخ أن يجد لها حلاً، ما لم يتفرس الشيخ في المريد عدم قدرته على الذكر والفكر. فيرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة أو يشغله بخدمة السالكين الآخرين. ومثل هذا المريد المجاهد ينجو من المهالك في ظل رياضة النفس وتربية الشيخ ويسلك وادي النور واليقين.

وما ان يصل أبو حامد في حديثه إلى هذا الحد حتى يفقد فيض طاقته ويثور عليه قائلاً: انك تحدث البدعة الشنيعة في الدين وتأتي بشريعة جديدة وتخوض في وادي الضلال، وتأمر الناس بفعل المحال فهل في شريعة النبي نقص؟ وأليس الاسلام أفضل الشرائع. ألم تسمع ما ورد في التنزيل: ﴿**ان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله؟**﴾ فلماذا السعي وراء التكلف. والبحث عن المحال للوصول إلى الحق. ولماذا لا نكتفي بما جاء به النبي؟ ونخوض في المهالك والمفاسد التي لا ينجو منها من ألف ألف واحد.

ومن قال أن يرفض المال والجاه بالمرة؟ ولماذا كل ذلك الحث على طلب الحلال؟ وما معنى احراز قدر قوت السنة من المال؟ أليس كل من القى كلّه على الناس ملعونا. ألم يرد في الروايات مراراً، «أن أفضل القربات الحب في اللّه والبغض في اللّه». واما البيتوتة في بيت والحديث مع النفس فغير جائز ايضاً. فقد ورد «أن الشيطان أجرأ ما يكون على الانسان وأشد ما يهم به إذا كان وحده» والاقتصار في الأوراد على كلمة واحدة ليس صحيحاً فقد ورد في فضل تلاوة القرآن والدعاء مع ما ورد في فضل الجمعة والجماعات وتزاور الاخوان والاشتراك في الاجتماعات وفي الحديث المتفق عليه بين الخاصة والعامة «لا رهبانية في الاسلام» أو «ان رهبانية أمتي الجلوس في المساجد» ما يباين طريقة هؤلاء فهؤلاء المبدعون جمعوا بين الجهل وسوء الأدب مع اللّه. اما الجهل فلكونهم لم يعملوا بأوامر اللّه ونواهيه. واما سوء الأدب فمعارضتهم للّه سبحانه ورسوله. ومما زعموه طريقاً إلى معرفة اللّه. وعلاوة على ذلك ليس في وسع أحد من البشر رفع الخواطر جميعها. ومن المحال أن يملك انسان السيطرة على دخول وخروج الأفكار والخيالات في جميع الأحوال. والطريق الذي زعموه لن ينتهي الا برفع الخواطر ومتابعة شيخ جائز الخطأ لا يوصل إلى القصد. والاول محال والثاني غير جائز. ولهذا قال الامام الصادق: «اياك أن تنصب رجلاً دون الحجة فتصدقه في كل ما قال».

وحينما ينتهي تخريب البناء وهدم السقف ويخف عتاب فيض، يتوجه نحو خطة جديدة فيتساءل: فما الطريق إلى معرفة اسرار الدين وتحصيل اليقين؟ ويجيب: المؤمن الموقن أعز من الكبريت الأحمر، وليس لعامة الناس أن يسلكوا مسلك الحكماء الألباء أو ينهجوا منهج الربانيين من العلماء. ومن اراد الشروع في تحصيل العلم المكنون عند أهله المضنون به في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

خزائن اسرار الباري أن يكون شاباً صحيح المزاج أميناً ذكياً عفيفاً صدوقاً مهذب الأخلاق كارهاً للمكر والخيانة مبرأ عن الرياء والنفاق، مبغضاً للفضول مقبلاً على العمل بالفرائض والنوافل من الوظائف الشرعية فيبدأ بالفرائض ثم النوافل ثم مراعاة الآداب والسنن ثم الصبر على البلايا والمحن وملازمة الذكر ومداومة الفكر والتخلي عن الشهوات النفسانية والخواطر الشيطانية بالمقدور. وان يفكر بمعبود واحد ومطلوب واحد فقط مع اخلاص النية وصفاء الطوية. ويعمل بعلمه ويراقب النفس والقلب حتى يصير علمه شيئاً فشيئاً يقيناً، واليقين عين اليقين، ومنه إلى حق اليقين. والعمدة في ذلك الزهد في الدنيا، ومتابعة الشرع من طريق أئمة الهدى، وملازمة التقوى. قال الله تعالى: ﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ وقال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٧٨].

الايمكن القول ان رفض فيض لشرط متابعة الشيخ قد قلل من أهمية امر الارشاد والسلوك. نعم لم يلتفت إلى حافظ الشيرازي في قوله «اصبغ السجادة بالخمرة إذا سألك الشيخ هذا» ولكن هل يمكن أن يقطع المراحل ويبلغ رشداً ما لم يحدث الخضر له منه ذكرا، فعدم مصاحبة الخضر لقطعها بُعد عن الحزم كما أن الخضوع والمثول والانحناء طاعة لا يجد المريد في كله نفعاً. فكم من رذائل وآفات أزيلت بجذبة أو لفتة في صحبة انسان مجرب جال في الآفاق والأنفس، وذاق طعم القرب. وكم من متفقد لأحوال القلب باحث عن آفاته طوى الأيام بالآلام وحل عقد المفاسد والرذائل عقدة عقدة وفض سداها من لحمتها، ولكنه عجز عن علاج نصف آفة من آفات نفسه وتدبيرها، إلى أن جاء صاحب ولّي فحل كل تلك العقد ببنان عنايته وفلاحه باشارة من قريب أو بعيد:

هركه تنها نادرا اين ره بريد
هم به ياری دل پيران رسيد
دست پير از غائبان كوتاه نيست
دست او جز قبضهٔ الله نيست

فإن كان الانسان بنفسه ثريا مضيئة فهو بالمرشد شمس مشرقة على ان يترك الغير وليس الشيخ البرّ، والحضور عند رجال الله كالحضور عند الله.

گر زتنهائی تو ناهيدی شوی
زير سايهٔ يار، خورشيدی شوی
خلوت از اغيار بايد نی زيار
پوستين بهر دی آمد نی بهار
كان كه درخلوت‌نظر بر دوخته‌است
آخر آن را هم زيار آموخته است

وجادة سلوك الباطن متداخلة ومتفرعة لا يتيسر طيها الا بصحبة شيخ خبير بسلوك الطريق. أو كما يقول أبو حامد: ان سبيل الدين غامض... ومن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه. إن اتباع الزاهد العالم بالآفات والأسرار والمجرب وطلب العلاج منه والأخذ بنصائحه ومواعظه ليس أمراً لا يقبل به العقل أو لا يجوزه الشرع. واذا كانت الخلوة والعزلة والرياضة الطويلة التي تحرق الروح وتهدم الروح والجسم والابتعاد عن الجمعة والجماعة تزيد من غلبة الشيطان على الانسان وتصدئ القلب والنفس بصدأ التباهي والكآبة. فليس من العقل والشفقة القاء كشف جميع المكائد والحيل النفسية والشيطانية على عاتق المسترشدين من الشباب غير المجرّبين وتركهم في صراع مع غول الداخل والظّاهر. والتخلّي عنهم من بداية الطريق إلى نهايته.

فهل الذين يعتمدون على اطباء الجسم ويسلمونهم عينهم ومعدتهم وقلبهم ودماغهم ليمتحنوها ويجرحون ويخيطون يؤمنون بعصمة الاطباء وهل كل اعتماد مشروط بالعصمة ومنوط بها. صحيح انه لا يمكن معرفة اطباء القلب بسهولة. والمدعون الكاذبون والمتبجحون في هذا الميدان كثيرون. الا أنه لا يمكن طبابة القلب بلا طبيب.

وأذا ما ضربنا صفحاً عن هذه المناقشة الجوهرية في امر السلوك وكيفية تهذيب الباطن والقرب من الله. فإن بين فيض وأبي حامد مناقشات أخرى حول الأخلاق الصوفية أيضاً، لا يخلو النظر فيها من فائدة وعبرة واكثر هذه المناقشات في كتاب الفقر والزهد، وكتاب التوكل والتوحيد الذي يتضمن آداب وروايات وحكايات كثيرة عن المتصوفة وهذه الاختلافات اما ظاهرة أو تستشعر من خلال الروايات والحكايات التي توحي عن اختلاف خفي، نذكر فيما يلي نماذج منها.

يورد أبو حامد في باب الزهد والحقيقة ودرجاتها حديثاً

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

مفصلاً وحينما يصل إلى هذا السؤال: هل يتصور الزهد مع الأكل والشرب ومخالطة الناس وكل ذلك اشتغال بما سوى الله واعراض وانصراف عن الدنيا؟ يجيب قائلاً: لا يتصور ذلك الاّ مع بقاء الزاهد، ولا بقاء الاّ بضروريات النفس ليتزهد. والأكل والشرب ضروري لبقاء النفس. ولكن على الزاهد أن يقتصر على قدر الضرورة ولا يقصد التلذذ والتنعم وأن يفكر بصيانة البدن عن الجوع والعطش والحر والبرد للاستعانة بالبدن على العبادة والتقوى على طاعة الله فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد. وفيض يتفق مع أبي حامد إلى هنا، ولكنه يحذف بقية كلام أبي حامد الذي يقول فيه: لقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة وانس القلب معه. وكان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحار ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا[٧٩].

كما يورد فيض في باب فضيلة الزهد أكثر الروايات الواردة في احياء علوم الدين. ولكنه لا ينقل شيئاً مما يتعلق بالصحابة والمتصوفة. ومنها: قيل للحسن [البصري] لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك[٨٠].

وكذلك فإن الغزالي يرى في بيان الأحوال المختلفة للفقر والفقراء أن خامس وأفضل حالة تتعلق بالذي يكون مضطراً لمقام يفقده، ومع ذلك يزهد عنه، ولو وجد سبيلاً له لم يرغب به. ولكن فيضاً علاوة على مخالفته لتقسيمه يقول الاضطرار المنضم إليه الزهد إن تصور، فليس من الخصال المحمودة، ولا من شيم العقلاء. إن الجائع المضطر الى الخبز لو أتاه الله الخبز عفواً هرب من أخذه. وليس هذا إلاّ من عمل المجانين[٨١]. كما أن فيضاً لا يرى صحة ما ذهب إليه أبو حامد في الآيتين ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ (البقرة: ٢٧٣) و ﴿للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم﴾ (الحشر:٨) ولا يرى فيهما دلالة على مدح الفقر وفضيلته، ولاسيما الرواية الغريبة التي أوردها الغزالي في مدح الفقر. فقد أهملها دون أي اشارة اليها، وهي أن الرسول قال: اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت اكثر أهلها الاغنياء والنساء[٨٢].

كما نرى فيضاً يحذف أقساماً من البحث الجيد الذي أورده أبو حامد في باب فضيلة الفقر على الغنى ويقول إنه لا طائل تحته. ومنه استدلال ابن عطاء في قوله: الغنى أفضل من الفقر لأنه وصف الحق، والفقر وصف المخلوق. وجواب أبي حامدالذي أورده عن الآخرين حيث يقول. أولاً ليس الله غنياً بالأموال والأملاك. ثانياً اذا كان التشبه بالله واجب في كل حال فالتكبر من الصفات الحسنة للانسان والتواضع من الصفات المذمومة فالحق أن الفقر أفضل لأنه من صفات العبد وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها. ثم يستنتج أبو حامد قائلاً: إن مثل هذا الاستدلال لا يوصل إلى نتيجة اذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف العبد، بالعلم والمعرفة، فإنه وصف الرب، والجهل والغفلة وصف العبد. وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم.

واذا ما ضربنا صفحاً عن هذا فإن فيضاً يوافق الغزالي في حكمه النهائي في هذا الكتاب بتفضيل الفقر على الغنى فيقول: الأصلح لكافة الخلق فقد المال، وان تصدقوا بها وصرفوها إلى الخيرات... لأن امتلاكه يؤنس الانسان بهذا العالم وبقدر ما يأنس بالدنيا يستوحش من الآخرة. وفضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بمال الدنيا لا بالفقر والغنى نفسيهما ويجب ألاّ يظن أنه منقطع القلب عن المال وهو عنده، لان عشق المال كان مستكنا في القلب استكنان النار تحت الرماد، ويبقى مستكنا حتى تهب عليه ريح فيضطرم، وهذا حال الأغنياء إلاّ الانبياء والأولياء فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق من الغنى لأن أنس الفقير بالدنيا وشوقه إليها أضعف. وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثوابه وعباداته[٨٣].

ويتفق فيض مع أبي حامد في أن «الزاهد من أتته الدنيا الحلال والصفاء عفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم. وتركها خوفاً من أن يأنس بها ويكون مشركاً في حب الله أو تركها طمعاً في ثواب الآخرة اي انه يترك في هذه الدنيا التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين. وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة. وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا»[٨٤].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

وكذلك يحدد ابو حامد أربع وظائف للسالك في بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن: الأولى ألّا يأكل إلا حلالاً، والثانية يقدر قدر الطعام، والثالثة تقدير وقت الطعام، والرابعة تعيين الجنس المأكول. ثم يورد في شرح الوظيفة الثانية، رواية عن سهل التستري إذ قال: استعبد الله الخلق بثلاث: بالحياة والعقل والقوة فإذا خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر إن كان صائما، وتكلف الطلب إن كان فقيراً. وان لم يخف عليهما بل على القوة. قال: فينبغي ألا يبالي ولو ضعف حتى يصلي قاعداً ورأى أن صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائمًا مع كثرة الأكل.

ويعترض فيض بقوله: هذا ليس بشيء، لأنه خلاف ما يظهر من آثار أهل البيت. فالصواب أن يحافظ السالك على قوته مهما أمكنه كما يحافظ على حياته وعقله. الم يقل الله عز وجل ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ [٨٥].

وقال أبو حامد في بيان الوظيفة الثالثة: (تقدير وقت الطعام): الدرجة العليا أن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها، وانتهى بعضهم إلى ثلاثين أوأربعين يوماً فلم يأكلوا شيئاً، منهم: محمد بن عمرو القرني وزهير وسليمان الخوّاص وسهل بن عبدالله التستري وكان أبو بكر الصديق يطوي ستة أيام وعبدالله بن الزبير يطوي سبعة أيام، وسفيان الثوري وابراهيم بن الأدهم يطويان ثلاثاً ثلاثاً ويروي أن أحد المتصوفة مر براهب نصراني وكلمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال: كان المسيح يطوي أربعين يوماً وانه معجزة لا تكون إلا لنبي صادق. فقال له الصوفي: إن طويت خمسين يوماً تدخل في دين الاسلام؟ قال: نعم. فطوى الصوفي خمسين يوماً وقال وأزيدك أيضاً فطوى على تمام الستين. وكان ذلك سبب اسلام الراهب. وهذه درجة لا يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وانساه جوعته وحاجته.

والدرجة الثانية: ان يطوي يومين إلى ثلاثة. والدرجة الثالثة وهي أدناها أن يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة، وما جاوز ذلك فهو اسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون للانسان حالة جوع. وقال الرسول لعائشة: «اياك والاسراف فإن اكلتين في يوم من السرف» فكان أكلتان في يوم سرفاً، وأكلة واحدة في يومين اقتار، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك وهو المحمود في كتاب الله.

ثم يبادر أبو حامد إلى الوظيفة الرابعة في نوع الطعام، فيحذر السالكين عن انتخاب الأغذية اللذيذة ومنع النفس من شهواتها. ويروي عن يحيى بن معاذ قوله: معاشر الصديقين جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس. فإن ترك الشهوات وقضاء العمر في مرارة وعسرة والابتعاد عن اللذائذ يضعف الميل إلى هذا العالم ويقوي الشوق إلى الآخرة حتى قال رسول الله(ص) «شرار أمتي الذين يأكلون مسخ الحنطة». وعلى الجملة لا سبيل إلى اهمال النفس في الشهوات والمباحات واتباعها بكل حال وبقدر ما يستوفي العبد من شهواته. يخشى أن يقال له يوم القيامة: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ (الاحقاف:٢٠) والمجاهدون مع النفس والزاهدون يستمتعون ويقال لهم: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ (الحاقة: ٢٤).

ويعاتب فيض الغزالي خلال حديثه، فيورد في البداية روايات في باب التغذية كقول الرسول: «ما بال أصحابي لا يأكلون اللحم ولا يشمون العطر ولا يأتون النساء، اما إني آكل اللحم وأشم الطيب وآتي النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني». وكقوله: «من أتى عليه أربعون يوماً ولم يأكل اللحم فليستقرض على الله وليأكله». ثم يقول: لقد بالغ أبو حامد في التقشف في هذا الباب سابقاً ولاحقاً. ولم نتعرض له في كلّ من أقواله بل اكتفينا بما ذكرناه، وحذفنا بعض حكاياته عن الصوفية مما تمجّه الطباع السليمة كنقله عن سهل بن عبدالله أنه أكل دقاق التين ثلاث سنين ثم اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين»[٨٦].

ومن الروايات التي وردت عن الصوفية في احياء علوم الدين وحذفت في المحجة: ان عتبة الغلام اشتهى لحمًا سبع سنين، فلما كان بعد ذلك قال: استحييت من نفسي أن أدافعها منذ سبع سنين فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها فلقيت صبياً فقلت: ألست أنت ابن فلان، وقد مات أبوك؟ قال: بلى. فناولته إياها. قالوا: واقبل يبكي ويقرأ «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً». ثم لم يذقه بعد ذلك ومكث يشتهي تمراً سنين فلما كان ذات يوم اشترى تمراً بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه. قال: فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

زع الناس فأقبل عتبة على نفسه يقول: هذا لجراءتي عليك
سراني التمر بالقيراط، ثم قال لنفسه:ماأظن أخذ الناس إلّا
.نبك؟ على أن لا تذوقيه[٨٧]. وليت أبا حامد أورد هنا الحديث
ـذي ذكره عن سهل التستري في كتاب الخوف والرجاء،
بطفئ التقشفات المحرقة بماء التعديل. يقول ان سهلا كان لا
فتأ يقول للمريدين الطاوين: اربأووا بعقولكم. فليس لله ولي
اقص العقل.

ثم يتطرق أبو حامد إلى بيان رياء الزاهدين والذين يقللون
لأكل فيقول: قد يبتلى العارف بالمعصية ولا يبتلى بالرياء
والغش والاخفاء. فنهاية الزهد، الزهد في الزهد باظهار ضده
وهذا عمل الصديقين. وهذا كمن يأخذ الصدقة جهراً ثم
يعطيها سراً ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سراً. وكان
بعضهم وان لم يخف زهده فإنه لا يخفي عدم زهده. يتساوى فيه
باطنه وظاهره. وهنا ينبري فيض قائلاً: «لا أرى صدقاً في
تلبيس الحال ولا خيراً في مثل هذه الفعال بل أرى كذباً محضاً
ورياء صرفاً ونظراً إلى الناس»[٨٨].

ولا يتفق فيض مع أبي حامد في باب تزويج المريد. فأبو حامد يرى أنه لا ينبغي على المريد في ابتداء امره أن يشغل نفسه بالتزويج، فهذا يشغله عن السلوك. ويجب الّا يقارن نفسه بالرسول الذي كان له زوجات كثيرات. فلتزويجه اسرار واسباب أخرى، واذا كانت تغلبه شهوة النكاح فليكسرها بالجوع الطويل والصيام الدائم فإن لم تنقمع ولا يقدر على حفظ العين فليتزوج. ويقول فيض: على العكس، الحاجة إلى النكاح في الابتداء اكثر منها في الانتهاء. وينبغي لمن أراد المعرفة أن يتزوج زوجاً لايشغله عنها كالمتعة[٨٩].

ويتفق فيض وأبو حامد في باب الميل الجنسي (شهوة الفرج)، ويرى كلاهما أن أعظم الشهوات شهوة النساء، والمرأة نصف جند إبليس ويقول أبو حامد (يتبعه في ذلك فيض)، قد تنتهي الشهوة ببعض الضلّال والبله إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع. والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق فتكتفي به، اما العشاق فلسفاهتهم يظنون انهم لا يكتفون إلا بشخص واحد معين (معشوق) حتى يزدادوا ذلا وعبودية للوصول إليه وحتى يستسخروا العقل لخدمة الشهوة. وما العشق إلا سعة افراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له[٩٠].

وأهم خلاف آخر بين فيض وأبي حامد يتجسد في طريقة الزهد فيما هو من ضروريات ومهمات الحياة، ويلخص أبو حامد هذه الضرورات في ستة أمور: المطعم والملبس والمسكن والأثاث والمنكح والمال. ويستثني الجاه منها، لأن طلب الأمور الستة هذه يدعو إلى طلب الجاه. ثم يشرح بالتفصيل طريقة التمتع بهذه الضروريات. فالدرجة العليا في المطعم أن يدفع الانسان الجوع عن شدته، وخوف المرض ولا يدخر من غذائه لعشائه. والدرجة الثانية: ان يدخر القوت لشهر أو أربعين يوماً. والدرجة الثالثة: أن يدخره لسنة فقط وهذه درجة ضعفاء الزهّاد. ومن ادخر اكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال. وتناول خبز النخالة أو الشعير والذرة من الدرجتين الأولى والثانية، والدرجة الثالثة خبز البر غير المنخول. فإذا أكل مما ميز من النخالة فقد خرج عن آخر أبواب الزهد، ودخل في التنعم. واما الأدم فأقله الملح أو البقل أو الخل، وفي الدرجة الثانية الدهن وفي الدرجة الثالثة «أدنى درجة» اللحم. واكثر من ذلك يتنافى مع الزهد. ثم يورد عن المسيح قوله: انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

اما الملبس : فدرجته العالية أن يملك الشخص علاوة على القميص والقلنسوة والنعلين منديلاً وسروالاً، وما جاوز هذا فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد اذا غسل ثوبه أن يلزم القعود عارياً في البيت، ولا يكون له ثوب آخر يلبسه. فإذا صار صاحب قميصين وسروالين ومنديلين فقد خرج من جميع الوان الزهد. اما جنس الثياب فأقله المسوح الخشنة يستطيع أن يلبسها ولا يجوز أفضل منها. والأقل منها الصوف الخشن والأقل القطن الغليظ. واما من حيث وقت بقائه فأقصاه ما يستر سنة، واقله ما يبقى يوماً حتى ان بعض المتصوفة يرقعون ثيابهم بورق الشجر. وطلب ملبس يبقى اكثر من سنة، وقوع في شرك الأمل وهو مضاد للزهد. قال رسول الله(ص): «إن الله تعالى يحب المبتذل الذي لا يبالي ما لبس». وحينما دخل رسول الله(ص) على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل بكى وقال يا فاطمة: «تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الأبد». وقال لعائشة: إن اردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوباً حتى ترقعيه. وقال علي(ع) إن الله

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره. ونهى النبي(ص) عن التنعم قائلاً: إنّ للّه تعالى عباداً ليسوا بالمتنعمين. وقيل في المسكن، اعلى درجات الزهد فيه الا يكون مسكن خاص للزاهد فيقنع بزوايا المساجد، وأوسطها أن يكون له كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه، وادناها ان يشتري أو يستأجر حجرة. أما التجصيص وارتفاع السقف فخروج عن حد الزهد بالكلية.

وروى أن كل نفقة في الأرض يؤجر عليها الا نفقة المرء في الماء والطين أما أثاث البيت فأعلاه في الزهد حال عيسى(ع) فلم يكن يملك الاّ مشطاً وكوزاً فرأى انساناً في الطريق يمشط لحيته بأصابعه فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب الماء فرمى بالكوز. وأوسطه أن يكون له أثاث وقصاع بقدر الحاجة والضرورة والأفضل ان يكون له آلة يستعملها في مقاصد كثيرة. وآخر درجة أن يكون له لكل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإذا زاد في العدد أو في الجنس خرج من الزهد. اما في انتخاب الزوج فيجب النظر إن كانت لا تشغل قلب الزاهد كثرة النسوة واصلاحهن والانفاق عليهن، فلا معنى لزهده فيهن حذراً من مجرد لذة الوقاع والنظر فلابد من بقاء النسل ولكن ليست هذه الرتبة لغير الأنبياء. فإذا كان على يقين بالوقوع في شرك المرأة، فينبغي أن يترك المرأة في الأصل، وان كان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة، فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك[٩١].

ثم يصل أبو حامد إلى بيان الزهد في المال والجاه فيقول: ليس للزاهد أن يترك القلب على هواه ويطلب المنزلة والحب بين الخلق. أو أن يدخر القوت لأكثر من سنة. والأفضل أن يترك الكسب إذا اكتسب حاجة يومه.

إلاّ أن فيضاً لم يوافق إلا على الموضوع الأخير (وبقيود واصلاحات) من بين المواضيع المذكورة (والتي تزيد قليلاً عما أوردناه) ولم يذكرها في المحجة. واكتفى بتوجيه نقد شديد لها بقوله: «ثم أخذ أبو حامد في بيان هذه المهمات الستة واحداً واحداً بكلام عليل وتفصيل طويل خرج به عن حد الاعتدال. والاقتصار فيها على التضييق والتعسير والمبالغة في التقشف. والذي ليس عند أهل الحق بمرضي، وما لا يوجد في الناس عامل به، وما ذمه أهل البيت(ع). واستند في ذلك إلى أقوال السلف وأفعالهم ممن ليس قول وفعل بعضهم حجة[٩٢].

ولم يوافق فيض أبا حامد في حديثه عن الصبر على الأذى والذل والخنوع عند المتصوفة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ولم يعتبر ذلك من حسن الخلق والصبر واحتمال الجفاء والرضا بالقدر ولم يورده في المحجة.ومنها قصة أبي عثمان الحيري الذي دعي إلى دعوة، فلما بلغ مكانها. قال له الداعي: ليس لي عمل معك، فرجع أبو عثمان، فلما ابتعد قليلاً دعاه ثانياً، فرجع فقال له مثل مقالته الأولى، وهكذا ثالثا ورابعاً... واخيراً قال له إنما أردت أن أختبرك، فما أحسن خلقك! فقال أبو عثمان: إن ما رأيته هو خلق الكلب، ان الكلب اذا دعي أجاب واذا زجر انزجر. وقد طُرح على أبي عثمان هذا طبق فيه رماد من سطح، فنزل عن دابته فسجد سجدة شكر ثم نفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً. فقيل له: ألا زجرتهم ونهيتهم عن عملهم فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب. وكان يقول أويس القرني للأطفال الذين يرمونه بالحجارة: ارموني بالصغار من الحجارة حتى لاتدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة. وكان رجل يلحق بالأحنف بن قيس ويشتمه وهو لا يجيبه فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض السفهاء فيؤذوك. وقالت امرأة لمالك بن دينار يا مرائي، فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة، وكان ليحيى بن زيد الحارثي غلام سوء فقيل له: لِم تمسكه. فقال: لأتعلم الحلم منه[٩٣].

ومثل هذا بعض الروايات والحكايات الواردة في كتاب المحبّة والأنس والرضا من ربع المنجيات. ففي فصل بعنوان «جملة من حكايات المحبين» يقول أبو حامد: إن المريدين لولاية اللّه قد وصلوا في طلب شروطها باذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ثم أورد القصة التي نسبها في كتاب رياضة النفس لأبي عثمان الحيري باسم ابن الكريبي أستاذ الجنيد البغدادي الذي يقول لداعيه لقد رُضْت نفسي على الذل عشرين عاماً حتى صارت كالكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود. ويروى عنه أيضاً انه قال: كنت أعيش في محلة عرفت فيها بالصلاح، فتشتت قلبي فدخلت يوماً إلى

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

قام وسرقت ثياباً فاخرة ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها خرجت، وجعلت أمشي قليلاً قليلاً فلحق بي الناس، ينزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب الفاخرة، وصفعوني كثيراً فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام، فسكنت نفسي. كما أن أحد اعيان أهل بسطام وكان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوما، أنا منذ ثلاثين عاماً أصوم وأقوم الليل، ولكني لا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً. فقال أبو يزيد، ولو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلها ما وصلت إليه. قال ولم؟ قال لأنك محجوب بنفسك، فقال: أهذا دواء؟ قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك. وقل: كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق ليراك من يعرفك وانت على ذلك...[٩٤] لقد حذف فيض كل هذه الروايات من المحجة البيضاء بشجاعة.

بعد هذا نصل إلى آراء أبي حامد الغريبة والثقيلة في باب التوكل. فأبو حامد يقسم التوكل إلى ثلاث مراحل: الأولى: أن يكون اعتمادالانسان على الله كاعتماده على وكيله. والثانية: أن يكون كاعتماد الطفل على أمه. والثالثة: كالميت بين يدي الغاسل. والآن ماذا يفعل المتوكلون في التعلق بالاسباب. فهل الكسب أو شرب الدواء لا يناقض التوكل؟ وجواب أبي حامد: إن الاسباب على ثلاثة انواع: الأول: التي توصل الانسان إلى الهدف قطعاً، ولا يتم الهدف بدونها. والثاني: ما كان تأثيرها مظنوناً به. والثالث: ما كان تأثيرها موهوماً لا وثوق به.

فالاعتماد على الاسباب المقطوع بها في تأثيرها كمد اليد وتناول الطعام ووضعه في الفم للشبع لا يناقض التوكل. بل التوكل في ذلك منوط بعلم وحال المتوكل فقط. اي أن يعلم ان الله خالق الطعام واليد والاسنان والطعام وأن يعتمد في قلبه على فضل الله، فلا يطرأ على الانسان حادثة تأخذ وقته وتفسد عليه تغذيته. اما الاعتماد على الاسباب المظنون بها فلا تناقض التوكل. وإن كان عدم الاعتماد عليها من ارفع مقامات التوكل كخواص الصوفية الذين يسافرون في البوادي بلا زاد مع التوكل على الله. ولكن يجوز السّفر بلا زاد بشرطين: احدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه بحيث يستطيع الصبر عن الطعام اسبوعاً والثاني ان يقوى على التقوت بالحشيش وامثاله وهؤلاء من الخواص.

ولكن هؤلاء الخواص الذين لا يستصحبون الزاد كانوا يحملون الابرة والمقراض والخيط والركوة لعلمهم بعدم صعود الماء من البئر وحده. كما لا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي. وانخراق الثوب وانكشاف العورة وعدم وجود الماء يعرض المصلين للسوء. ولذلك وجب عدم الاستغناء عن جميع الأسباب كلية، وقد روى ان زاهداً أقام في جبل وعاهد نفسه على ألّا يأكل شيئاً والّا يسأل احداً شيئاً حتى يأتيه ربه برزقه، فكاد يموت جوعاً فأوحى الله إليه لا أرزقك حتى تأتي المدينة وتقعد بين الناس، فدخل المدينة، فجاءه الناس بالطعام حتى شبع، فالاعتماد على الأسباب المقطوع والمظنون بها اذن صحيح. ولكن الأسباب ظاهرة وخفية. والمتوكل هو الذي يكتفي بالأسباب المقطوع والمظنون بها الخفية ولا يعتمد على الأسباب الظاهرة. فالاعتماد على الاسباب الموهومة النفع يناقض التوكل كالتوسل بالطرق الغريبة والدقيقة للكسب، والعلاج من الامراض. وهنا يتساءل فيض: ألم نقل إن الحقيقة هي التوكل والثقة بالله لا بالاسباب. فما الفرق بين الأسباب الخفية والظاهرة. مع ان من جاهد نفسه بالرياضة بحيث يصبر على الجوع الأسبوع أو يمكنه التقوت بالحشيش فإنه يعتمد على سبب ظاهري، ولا توكل[٩٥].

ثم يتساءل أبو حامد: هل القعود في البلد بغير كسب حرام أو مباح أو مندوب. ويجيب انه ليس حراماً اذ لا يبعد ان يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب. ولكن لو أغلق الباب على نفسه بحيث لا يصل أحد اليه ففعله ذلك حرام. وإن فتحه وهو بطال غير مشغول ولا يتعبد. فالكسب أولى، ولكن ليس فعله حراماً. إلى أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال أو الكسب. اما لو جلس بطالاً بلا كسب ولم يغلق على نفسه الباب وكان مشغول القلب بالله، فهذا افضل وهو من المتوكلين.

واعتراض فيض على هذا الحديث لا يخلو من الأهمية فهو يقول: لعل أبا حامد إنما أورد أمثال هذه الأخبار ليرد اهل الحرص إلى الاعتدال. والا فلا ريب أن الانسان مكلف بطلب الرزق بالاسباب التي هداه إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك. الم يقل رسول الله «العبادة سبعون جزءاً أفضلها

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

طلب الحلال». وقال الصادق (ع): «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه» وقد روى أبو حامد طرفاً منها في مواصفها وإنما خبل عقله وكياسته في امثال هذا المقام لحسن ظنه بالسلف أن ما أنتهى إليه من افعال متقشفيهم صحيح[٩٦].

ثم يقسم أبو حامد المتوكلين إلى ثلاثة مقامات: الأول: مقام الخواص وهو الذي يدور في البوادي ثقة بفضل الله ورضى بالموت. والثاني: ان يقعد في بيته أو في مسجد ولكن في المدن ويترك الكسب وهؤلاء أقل مقاماً ولكنهم من المتوكلين. الثالث: الذين يخرجون من البيت ويكتسبون كسباً مشروعاً. وهؤلاء لا يخرجون ايضاً عن مقامات التوكل. على أن تكون قلوبهم مع الله واعتمادهم على الله لا على الكسب، وليكون له كفايته من الكسب. ثم اذا كان كسبهم لينفق على عيالهم أو يفرق على المساكين فحالهم هذا أشرف من حال القاعد في بيته. اما المتصوفة الذين يجلسون في الرباطات الموقوفة فعملهم بعيد من التوكل. لأنهم يعلمون بأنهم يستطيعون الحصول على ما يحتاجون إليه من طعام وحاجات، ما لم يقوي توكله بالحال والعلم[٩٧].

ثم يتساءل أبو حامد: فما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج منه ويتكسب؟ ويجيب: ان كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وعبادة وهو لا تستشرف نفسه إلى ما في يد الناس فالقعود له أولى، والاّ فلا، لأن الاستشراف إلى ما في يد الآخرين خطر مهلك. وقد قال ابراهيم الخواصّ: رأيت في بعض أسفاري الخضر، ورضي بصحبتي. ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي اليه فيكون نقصاً في توكلي[٩٨]. ويجيب فيض بصراحة هنا: الكسب أفضل له على التقديرين. فقد عاتب الله تعالى داود (ع) على أكله من بيت المال. وقد قال الامام الصادق: «إن استطعت ان لا تكون كلاًّ على الناس فافعل»[٩٩].

ثم يعلم أبو حامد درساً في حسن الظن بأن على الانسان أن يقوي الثقة في نفسه بفضل الله ورزقه وان يزيد هذه الثقة بقراءة حكايات الصالحين ويوقن بأن يوماً سيحل لا محالة يسحق فيه وعيد الشيطان بالفقر والهلاك. ثم يورد حكاية عابد عكف في مسجد ولم يكن له رزق معلوم. فقال له الامام مراراً لو اكتسبت لكان أفضل لك. فلم يجبه العابد ثلاثاً فقال في الرابعة: يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين، فقال الإمام: إن كان كذلك فعكوفك في المسجد خير لك، فقال العابد: لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك، اذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله بالرزق. وروى أيضاً أن امام مسجد قال لبعض المصلين: من اين تأكل؟ فقال: اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك[١٠٠].

لاشك في أن فيضاً لا يقبل مثل هذه الحكايات ويطعن بها قائلاً: إن الله كما ضمن الرزق فقد أمر بالطلب والكسب. ولا يخلو جواب هذين العابدين من الرعونة. فأي منافاة في أن يكون شخص امام جماعة ويسأل عن حال رجل مجهول ينادي ظاهره بالبؤس واليأس وانه كَلّ على الناس؟[١٠١] ويورد أبو حامد أيضاً حكايات غريبة كثيرة. لتقوية حسن الظن بالله الرزاق في ضمير غير المتوكلين. (ولا يلتفت فيض اليها ويحذفها). منها: حكاية أبي سعيد الخراز الذي يقول: دخلت البادية بغير زاد، فأصابتني فاقة، فرأيت قافلة من بعيد فسررت وفكرت في نفسي انني سكنت إلى غير الله. وآليت على نفسي ألا أذهب الى القافلة الا أن أُحمل اليها. فحفرت حفرة، وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل القافلة إن وليّاً من أولياء الله حبس نفسه في الرمل فالحقوه. فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية. وقال أبو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين وفي الطريق وقعت في بئر، فنازعتني نفسي أن استغيث أو لا. فقلت أقسم ألاّ اطلب العون من أحد. فما استتمت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر، يحسن أن نسد هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وطين وطموا رأس البئر. فهممت أن أصيح فقلت في نفسي، إلى من أصيح والله أقرب منها؟ وسكنت ساعة فإذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك. فتعلقت برجله فأخرجني، فإذا هو سبع. فهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف[١٠٢]؟!

إن قبول مثل هذه الحكايات وايرادها في الكتاب وطلب تقوية حسن الظن بالله بها وادراك حقيقة التوكل ادراكاً عميقاً، وقبول الأعمال والأفكار الصوفية التي يمارسها جمع من أهل الخيال والبطالة والمنفردين عن الناس يلقي على وجه

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

اب الغـزالي نقطة سوداء كبيرة تنقص من جماله كما أن يب فيض لهذه الحكايات واتخاذ موقف معتدل من السلوك زكية النفس واراءة صورة جذابـة للمفـاهيم والفضـائـل خـلاقية يضفي مزيداً من الجـمال على طلعة هذا الكتاب زيد من تأثير الحسن في التربية والتهذيب.

إلّا أن هذا البنـاء المائل سيحافظ على ميله في ارتفاعه. راء أبي حامـد الثقيلة رحـمة اللّه عليه لم تنته بعد. فتأخذه شفقـة على عيال المتصـوفة ويفرض عليهم عدم تكليفهم صـبر على الجـوع. والا يُطلب منهم ادراك عالٍ بالتـوكل التوحيد أما المنفرد فيجوز أن يجوع لتوكله وان يطيب نفسا الموت، وإذا حل أجله يعلم أن رزقه الموت والجوع. ثم يستنتج ن التـوكـل ليس انقـطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على لاسبـاب الخفية وتحمـل الجوع والرضا بالموت (وإن تأخر الـرزق نادراً)، ومـلازمـة البـلاد والبوادي التي لا تخلو عن حشيش، الّا أن الناس عدلوا عن اسباب أظهر منها ولم يعدوا تلك اسبـــابـــاً لضعف ايمانهم وشـدة حرصهم وقلة صبرهم، والابتلاء باساءة الظن وطول الأمل[١٠٣].

وهنا يثور فيض قائلًا: أولاً: إن توطين النفس على الموت اختياراً وانتظاره منهي عنه شرعـاً. وقد قال اللّه تعالى: ﴿ولا تلقـوا بايديكم إلى التهلكـة﴾ (البقـرة: ١٩٥) وثـانياً: ليس التوكل مباشرة الأسباب جلية كانت أو خفية[١٠٤].

ويبادر أبو حامد إلى شرح ودعم رأيه فيتساءل: أكان درّ اللبن في ثدي الأم بحيلة الـــطفـل؟ وكيف بنبت القـواطـع والطواحين لأجل المضغ؟ وكذلك تيسيرأسباب التعلم والدراسة إذا كبر؟ إلّا سلط اللّه الحب والشفقـــة في قلب الاب والام لرعاية الولد في الصبا وبعد البلوغ. فلم الخوف من عدم توفر الأسباب وانقطاع الرزق وسوء الظن باللّه؟ فقد سلط اللّه الشفقة على قلوب الناس حتى اذا أحسّ أحد بمحتاج أو فقير اسرع لاعانته فما رؤي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعـاً. فاللّه تعالى كافل ذلك الذي ليس له كافل. وكذلك كفالته بتوكل السابقين. فإذا كان بطالاً لا عمل له وامتنع عن الكسب مذموم. اما اذا عابد استغرق الأوقات بالعلم والعبادة فالناس يكفلونه بما في قلوبهم من حب وشفقة الهيتين، وعمله عين التوكل. ولكن عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس. وما رؤي إلى الآن عالم وعابد استغرق الاوقات باللّه تعالى، وهو في المدينة، ومات من الجوع. فمن اشتغل باللّه تعالى القى اللّه حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب. فقد دبر اللّه الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهلهما.

فعليك أن تقتنع بالنزر اليسير، واعلم أنك ان فررت منه، أتـاك. وإن اشتغلت بالتقـوى والتـوكـل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى: ﴿ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾. وليس ضمان الـرزق أن يتكفل لك لحم الطير ولذائذ الأطعمة فما ظمن الا الرزق الذي تدوم به حياته. ومداخل الرزق ومجاريه لا تعد ولا تحصى. وكل من اشتغل بالضامن واطمأن الى ضمانه فرزقه مضمون ومبذول له لا محالة. دخـل جماعة على الجنيد، فقال: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب رزقاً، فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه، قالوا: نسأل اللّه، قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه، فقالوا: ندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون؟ فقال: التوكل على التجربة شك، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة، لذا اقنع وانتظر وعد اللّه تشاهد ما يرد عليك من الأرزاق العجيبة من طرق لم تكن في ظنك. والذين لهم ذكر بالعبادة والعلم. ويقنعـون بالطعام مرة واحدة في اليوم والليلة. وبثوب خشن فسيأتيهم رزقهم دائمًا بل يأتيهم أضعاف حاجتهم. فتركهم التوكل واهتمامهم بالرزق غاية الضعف والقصور. فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح. لأن شرطهم القناعة. والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة ان كانوا معه. الّا إذا أراد أن يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العـامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل، ولم يكن له سير بالبـاطن. فإن الكسب يمنـع عن السـير بالفكـر الباطن. فاشتغالهم بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى اللّه تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرّغ للّه عزّ وجلّ واعانة للمعطي على نيل الثواب[١٠٥].

أليس من حق فيض أن يؤذيه هذا الحديث فلا يورد منه كلمة واحدة ويدعوه ترهات لا فائدة لها بقوله «ولما لم يكن في ذكر امثال هذه الترهات والتعرض لها فائدة طويناها وضربنا عنها صفحاً»[١٠٦].

وحـديث أبي حامـد في باب ازالة الضرر وأخذ السلاح

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

واغلاق الباب والدكان ومداواة المرض وتعارض هذه الاعمال مع التوكل مثير ايضاً. والسؤال: هل أخذ السلاح والخروج من تحت الجدار المائل. وعدم النوم في الأرض المسبعة، والهرب من أذى الحيات والعقارب وعقل البعير لا يتعارض مع التوكل؟

ويجيب أبو حامد: إن السكون إلى الأسباب المقطوعة والمظنونة التأثير جائز. والصبر على ضرر الناس وعدم الجدّ في دفعه فجائز وأولى أحياناً. واما الصبر على أذى الحيات والعقارب لا يخلو من الفائدة ويحتاج إلى فن. وكذلك فإن ارتداء الجبة دفعاً للبرد والدرع في الحرب. وقوله تعالى في كيفية صلاة الخوف ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ وامره العالم ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ووصية الرسول الاكرم لذلك الأعرابي الذي أهمل بعيره «اعقلها وتوكل» كل هذه الأعمال لا تتعارض مع التوكل.

اما اغلاق الباب فأهمها. أن لا يبالي المتوكل يسرق ماله أو لا يسرق. ويعلم أنه لولا أن الله علم أن الخيرة كانت له في وجوده فأعطاه. وأن الخيرة له الآن في عدمه لما أخذه منه.

وللمتوكل اذا خرج من بيته أولاً أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كجمعه أغلاقاً كثيرة أو التماس الحفظ من الجيران. ثانياً: أن لا يترك في البيت متاعاً يحرض عليه السراق. والثالث: أن ينوي عند خروجه الرضا الكامل بتسلط السارق عليه. وإن ما يأخذه هو منه في حل او إنه انفق في سبيل الله تعالى وإن كان السارق فقيراً فهو عليه صدقة (وإن لم يشترط الفقر فهو أولى). فيكون له نيتان: أن يكون ماله مانعاً من معصية السارق وان يكون ماله فداء لمال مسلم آخر. فلا يأكل السارق الا حلالاً ويمتنع عن المعصية من جهة وربما يستغني بالمسروق فيتوانى عن السرقة بعده ولا يتعرض لمال مسلمين آخرين من جهة أخرى.

أترى الشفقة على الخلق. هذه اكثر اخلاق الصوفية تلألؤاً فهم يمنعون العصاة في السر عن المعصية ويجعلون من عملهم السيء مقدمة للخير ويبدلون السيئات بالحسنات. سمعت أنّ سالكي سبيل الله لا يحزنون قلوب الاعداء. والرابع انه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن بل يفرح. ويقول: لولا ان الخيرة كانت فيه لما سلبه الله وان كان جعله في سبيل الله فيترك طلبه. وان لم ينفعه في سبيل الله فلا يبالغ في طلبه.

والخامس: وهو أقل الدرجات الا يدعو على السارق. فإن فعل بطل توكله. والسادس: أن يغتم لحال السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً. وجعل ذلك نقصاً في دنياه لا نقصاً في دينه. شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق. فقال العالم: ان لم يكن لك غم انه قد صار في المسلمين من يستحل هذا اكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين[١٠٧].

اما مداواة الأمراض فإن الاعتماد على الأساليب المقطوعة والموهومة الأثر جائز بل هو واجب. والمداواة ليست مناقضة للتوكل بحال من الأحوال. يدل على ذلك فعل الرسول. اما امثال الكي والرقية والطيرة وما يجري مجراها مما تحتاج ملاحظته إلى تدبير وغاية التعمق فهو من الموهوم وفعله مناقض للتوكل. وقد يترك الصالحون التداوي. وفعلهم وان كان غير مقبول في كل الاحوال فإنه غير مردود، ولترك التداوي اسباب واسرار فقد يكون المريض من المكاشفين. ويعلم أنه انتهى أجله، وقد يكون المريض مشغولاً بخوف عاقبته فينسيه ذلك ألم المرض. فيغفل عن التداوي وقد تكون العلة مزمنة والدواء موهوم النفع. وقد يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثوابه بحسن الصبر. وقد يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيراً، فيترك التداوي خوفاً من أن يسرع زوال المرض. وقد يستشعر أنه يعلم مرضه ويعلم أن طول مدة الصحة داع للطغيان والغفلة والبطر، ويريد بدوام هذا المرض تدارك الأمراض الروحية المحتملة. وقد روي عن السلف الصالح أنهم كانوا يستوحشون إذا مر عام ولم يصابوا فيه بنقص في جسم أو مال. وقالوا لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً من أن يروع أو يصاب بمصيبة، حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها. وانه وصفت امرأة عند رسول الله فهمّ أن يتزوجها فقيل وانها ما مرضت قط. فقال: لا حاجة لي فيها. فترك التداوي في كل ما ورد جائز ولا يتعارض مع التوكل[١٠٨].

لم يطب جل هذا الحديث لفيض ولم ينقله وضرب عنه صفحاً بقوله «لا طائل تحته». واكتفى بذكر ما أورده أبو حامد في باب جواز التداوي وعدم جواز الكي والرقية وامثالها.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

ويجب أن نضيف هنا أن الحكم بموهوم النفس بغير دواء يرتبط بعلم زمانه وليس دائمًا. يقول أبو حامد: أن أكل الثوم قبل السفر في الشتاء تهييجاً للحرارة ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب ولذلك يتعارض مع التوكل. وسبب ذلك أن ظهور هذا الأثر من الثوم في زمانه لم يكن امراً مسلمًا ومقطوعاً به. وإلّا فما الفرق بين تهييج الحرارة بالثوم وتدفئة الجسم باللباس. سوى أن احدهما يعمل به والآخر مجهول خفي الآثر؟ يبدو من اقوال فيض وأبي حامد والنهج الذي انتهجاه فيها انه يجب الاكتفاء بالعوامل والعناصر الظاهرة لتنظيم المعيشة وجلب النفع ودفع الضرر وعدم الجري وراء كشف العوامل الخفية والا تزداد الحياة في الحاجات والتفنن. واختلاف هذا الرأي مع التقدم التكنولوجي أوضح من الشمس . ولا شك في أن الحياة الصناعية اكثر تعارضاً في تعريف أبي حامد مع الزهد والقناعة والتوكل. ولكنه يدرك نفسه عدم قدرة جميع الخلق على هذه الأحوال. واذا ما مال اكثرهم إلى التوكل والقناعة والزهد وتركوا الغفلة اضطربت الحياة الدنيا ولم تتم حكمة اللّه في خلقه ولذا فإن توكل عدد قليل ومعدود لا يخلّ بتدابير الخالق في تقدم خلقه.

ويحسن أن نختم هذا القسم بحديث أبي حامد اللطيف. يقول في كتاب التوحيد والتوكل هذا وفي بحث أخذ السلاح والحذر من السباع. أن جماعة ركبوا الأسد لا يحذرونه فلا ينبغي أن يغرك هذه الحكايات فتحسب أن تلك المقامات والكرامات شرط في التوكل فتغتر وتقترب من السبع متوكلاً بلا انتباه فإن قلت هل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إلى هذه المقامات. فأقول: الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات. ومن لم يصل، ليرى هل كلب غضبه مسخر له أو لا؟ فإن سخر له فربما في الدرجة التالية سخر له الأسد الذي هو ملك السباع[١٠٩].

الثالث: الكلام والفلسفة

يتفق فيض مع أبي حامد في تقسيم العلوم إلى شرعية وغير شرعية، وتقسيم العلوم غير الشرعية إلى محمودة ومذمومة ومباحة. ولا يناقض أبا حامد في ازرائه بعلم الكلام وما عابه به عن علم وحرقة ويرى مثله فساد عقائد العامة وأن الخوض في غوامض صفات اللّه تعالى، ومباحث الأكوان الكلامية ضلال وشر محض. ولكنه يعارضه في رأيه في باب الفلسفة وفوائدها ويعتبره مردوداً ويسعى لاصلاحه. كما لم يرد اسم الكلام والفلسفة بين العلوم المحمودة والمذمومة في احياء علوم الدين وكان أبو حامد يعلم أن خلو هذين العلمين سيكدر المغرمين بهما والحاملين لهما ويحملهم على الاعتراض فبادر إلى الدفاع قبل وقوعه بقوله: نعم ان السر في عدم ذكر الفلسفة بين العلوم أنها ليست علمًا برأسها بل هي أربعة اجزاء: الأول: الحساب والهندسة وهما مباحان. والثاني: المنطق، وهو داخل في علم الكلام. والثالث: الالهيات وهو داخل في علم الكلام أيضاً. والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم، بل انفردوا بمذاهب باطلة بعضها كفر وبعضها بدعة. والرابع الطبيعيات. وبعضها مخالف للشرع. فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم. وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها. وهي تشبه الطب مع فرق أن الانسان بحاجة إلى الطب وليس بحاجة إلى طبيعيات الفلاسفة[١١٠]. ويرد فيض هذا الرأي. ويقول: إن أبا حامد أخطأ في تعيين أقسام وفي وصفه لها. وإن الفلسفة علم شريف جامع لجميع العلوم العقلية الحقيقية التي لا تتغير بتغير الزمان، ولا تتبدل بتبدل الأديان، وانها تشمل الكثير من المسائل التي عدها أبو حامد من علم المكاشفة كمعرفة المعنى الحقيقي للوحي والنبوة وملكوت السموات والارض، والمعرفة الحقيقية لذات اللّه تعالى وصفاته وافعاله وحكمته. وكذلك علم الهيئة والتشريح والطب والنجوم والخطابة والشعر وحتى علم الشرائع وكثير من العلوم الدنيوية والاخروية الأخرى. تتعلق بالفلسفة. واكثر هذه العلوم مأخوذ من الوحي أو مقتبس من الالهامات الواردة على القلوب المنورة والنفوس المرتاضة لأولي الخلوات والمجاهدات. نعم أن يد الفلاسفة أقصر من يد الأنبياء في جني ثمر المعرفة من نخل الحقيقة الباسقة ولولا أن نظر الأنبياء أوسع وأحد لما استطاع الفلاسفة ان يقطعوا وادي المعرفة الواسع بعصا العقل خصوصاً فيما يتعلق منها بالمكاشفة ومعرفة حقائق النشأة الآخرة.

با عصا كوران اگر ره ديده‌اند
در پناه خلق روشن ديده‌اند

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

ومع ذلك لا يجوز التقصير في حق الفلاسفة والتفريط في شأنهم على وجه يفضي إلى الازراء بهم وبآيائهم لا سيما وكلماتهم مرموزة ولا ردّ على الرمز.

الا أن رأي فيض في باب الفلسفة لا يمنعه من المساهمة في ترغيب السالكين طريق الآخرة في الاقبال عليها في باب التعليم والتعلم. وبالعكس يرى أن طريقة الفلاسفة كثيرة الخطر والمهالك. ويعلم أنه تطّرق إلى الفلسفة تحريفات، وضل فيها كثير من الأذكياء الذين اصبحوا في هذا الطريق طعمة للغيلان. وتاهوا عن الحق. وبيّن انه إن كان في الفلسفة شيء فما كان لنفع في الآخرة فالأنبياء وخصوصاً نبي الاسلام قد علّموه الناس على وجه اتمّ واكمل واسهل وما لا ينفع منها في الآخرة فلا حاجة إليه. ومثلها من العلوم علم الهيئة الذي لا حاجة فيه إلى التفصيل بل يكفي فيه المجملات التي وردت في الشرع. لذا فالأولى اعراض العموم عن علوم الفلسفة. وعدم الخوض في طريقتهم، الا لمن احكم العلوم الدينية كلها. واراد أن يستطلع على مقاصدهم فلا بأس من البحث في مطالبهم.

ويستطرد فيض قائلاً: يظهر مما أوردناه وجه مدح المترسمين بالعلم للفلسفة وذمها. ولعل أبا حامد رأى المصلحة في ذمها اشفاقاً على العوام، وحثاً لهم على ملازمة الشرائع، وصوناً لهم عن الخوض فيما لا يهمهم[١١١].

نرى أن أبا حامد وفيضاً ينتهيان إلى نقطة واحدة هي «عدم فائدة» أو بالأحرى خطر الفلسفة على اتباع الشرائع. وحينما يثني فيض على الفلسفة في مقام «الثبوت» لا يراها خالية من الاخلال والتحريفات في مقام «الاثبات» ويقترب في رأيه من أبي حامد باعتبار الفلسفة لا تخلو من البدع والكفر. ويجب الحكم في الواقع على «الفلسفة الموجودة». اي على ما هو موجود وليس ما سيكون أو ما كان بين القدماء وزال الآن. ومن النقاط التي لا تخلو من العبرة والفائدة عدم دفاع فيض عن الطبيعيات وتأييده لأبي حامد في رأيه بأن الطب أفضل منها، ولا حاجة إلى طبيعيات الفلاسفة. ويظهر من هذه النقطة بوضوح كيف يُؤثر الانسان النظر إلى الآخرة وطلب نعيم العالم الخالد. والنظر إلى الدنيا بعين الحقارة. واعتبار الدنيا مزرعة الآخرة والقناعة في العلم. والتقليل من الحاجات البشرية. واعتبار التفنن والتوسع في المعيشة مكروهاً (بل غير جائز) في اتساع وغنى العلوم ويصيب العلوم البشرية بالانقباض والبسط.

اما الكلام. فيرى أبو حامد أن القليل هو من علم الكلام وهو مولود وغير مطلوب، وحديث العهد بالاسلام والحاجة إليه لدفع الشبهات والدفاع عن حصار العقائد، واخماد غبار الضلالات. وحراسة قلوب العوام. وبقيته، إمّا ادلة نافعة يشتمل عليها القرآن والأخبار (ولذا فهي من العلوم الشرعية) وإمّا جهل وليس بعلم ومن الجدال والبدع والمشاغبات والروايات المنقولة من هنا وهناك واكثرها هديانات وترهات.

والمتكلمون في رأي أبي حامد في موقع الحراس، فتكون الحاجة إلى الحراس لوجود السراق، ولولا أهل البدع والشبهات، لما كان للمتكلم موقع في المجتمع الاسلامي. ولذا وجب على المتكلمين أن يعلموا حدهم من الدين. وان موقعهم موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرد الحارس من الحراسة لم يكن من جملة الحجاج. والمتكلم الذي يتجرد للمناظرة والمدافعة، ولا يسلك طريق الآخرة ولا يشتغل بتعهد القلب. ليس من جملة علماء الدين أصلاً. والفرق الوحيد بين المتكلم والعوام، أن العامي يتميز بصنعة المجادلة والحراسة فقط، ويجب ألا يظن ان عقائده اكثر عمقاً. وانه أكثر حظاً من معرفة الله وصفاته وافعاله. فمثل هذا العلم لا يحصل من علم الكلام بل هو من علم المكاشفة والوصول إليه بالمجاهدة مع النفس في سبيل الله.

ثم يحذر أبو حامد مخاطبه العاقل من اتخاذ شهرة الرجال ومقامهم ميزاناً لمعرفة الحق. ويرى المشهورين من الفقهاء والمتكلمين فيحسب أنهم هم علماء الدين فقط. وأن الفقيه هو عالم في القانون والمتكلم حارس. ورغم أنهما كلاهما يحملان همّ الدين وحراسة المؤمنين بنحو من الانحاء. الّا أن أياً منهما ليس في الواقع عالماً دينياً، وخصوصاً المتكلمين الذين دخلوا ساحة الشريعة بشفاعة المبتدعين، وأثاروا من الغبار في جدالهم مع الخصوم ما أزال النوم والسلامة من عيون الأصدقاء[١١٢]. إن تجربة أبي حامد وتضلعه العلمي الكبيرين في علم الكلام. والضرر الذي لحقه ولحق المجتمع الاسلامي منه كان عظيمًا

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

فادحاً إلى حدّ لا يسمح له باعتباره اكثر من «دواء خطر» أو فاسد لدفع فاسد آخر» فهو ينصح بشفقة الطبيب وينذر أن لا يُترع هذا الدواء الضاو الاّ نادراً وعند الضرورة وألاّ تُطلب المعرفة الحقيقية بالله والرسول من الكلام. وأن يحترز الانسان هذا العلم غير النافع. فضرره أكثر من اصلاحه. وألاّ يغتر بقوة احتجاجه. والاّ يسير بدون قائد وحارس في طريق، رجل العقل فيه عرجاء وعصا العلم مكسورة، وأن يقتدي بالكبار والصحابة وأن يلزم اتباع السنّة في كل حالة فالسلامة بها[١١٣].

وأن لا تترك نصيحة من جرب الكلام ومارسه واتقنه وبلغ فيه اعلا درجة بين المتكلمين. وسبر غور ما شابهه من العلوم وخاض فيه. وايقن أخيراً أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود[١١٤].

ويتضح من الحديث الذي أورده أبو حامد في «معنى سوء الخاتمة» من كتاب الخوف والرجاء. أنه شديد الخوف من أن ينكشف له حين الموت، القيلُ والقال والشبهات ووساوس أيام كان متكلّماً، ويبتلى بسوء العاقبة ويترك الدنيا كافراً لا ايمان له. وهو لا يرى أن الزهد والصلاح لا ينجيان من هذا البلاء. ويرى أن أهل الجهل والذين لم يتعلموا الكلام «والبله» الذين لم يصغوا إلى اقوال المتكلمين وآمنوا ايماناً مجملاً وراسخاً بمعزل عن هذا الخطر.

ويقول: لهذا قال الرسول(ص) «أكثر أهل الجنة البله» ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام. ثم يؤكد قائلاً: «اعلم يقيناً أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر. ومثاله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب.

وكل من تلقف عقيدته من الباحثين والمتكلمين ببضاعة عقولهم اما مع الأدلة أو تقليداً فإن كان شاكاً فهو فاسد الدين وان كان واثقاً من الأدلة فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص إلاّ اذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوّة. وأنى يتيسّر هذا وهو بعيد، وإنّما يسلم عن هذا الخطر البله العوام او الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول[١١٥].

وهو ما نظمه جلال الدين المولوي شعراً بعد أبي حامد بقرنين وقال في قصيدته:

زيركى بفروش و حيرانى بخر
زيركى ظنّ است و حيرانى بصر
زيركى سبّاحى آمد در بحار
كم رهد، غرق است او پايان كار
هل سباحت را رها كن كبر و كين
نيست جيحون نيست جو، درياست اين
وانگهان درياى زرف بى‌پناه
در رباييد هفت دريا را چوكاه
عشق چون كشتى بود بهر خواص
كم بود آفت، بود اغلب خلاص
خويش ابله كن، تبع مير و سپس
رستگى زين ابلهى يابى وبس
اكثر اهل الجنّة البله اى پدر
زين سبب فرمود سلطان البشر

إن المقارنة بين عقائد المتكلمين وأهل الجدل وبين عقائد عوام الناس يبين أن هؤلاء يقفون كالسطود الشامخ أمام الأعاصير وأولئك كخيط مرسل في الهواء تلعب به الرياح. لذلك يوصي في وجه التربية والارشاد الا يشغل ذهن الصبيان والفتيان والباحثين بأقوال المتكلمين واغلاطهم بل يشتغلوا بتلاوة القرآن وقراءة الحديث والعبادات. وألاّ يظنوا أن هذه العقائد البسيطة تزداد رسوخاً بالأدلة الكلامية، كضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها.

ولهذا يضع أبو حامد كتاب «القواعد» ويورد فيه باختصار عقائد أهل السنة «الحقة» في باب الله والحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام والأفعال وكذلك النبوة والحياة الأخروية وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والجزاء والجنة والنار ومن ثم أوصياء الرسول. ويطلب من المعلمين أن يعلموا هذه العقائد البسيطة.

وهذا كاف في البلاد التي تقل فيها البدعة «ولا مسألة فيها» فإن كانت البدعة شائعة، وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يتعلموا ما أودع كتاب الرسالة القدسية (والذي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

ورد في الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد) فان أراد مزيدا من العلم فليطلبه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، فهو اكثر في الأدلة والتفصيل.

ولا يجوز التعمق في البحث عن الادلة والاحتجاجات، وإن لم تكف هذه الكتب لمداواة الداء على المعلم أن يعلم أن العلة أصبحت مزمنة، والداء غالب فليتلطف به وينتظر قضاء الله تعالى. وأن يُترك المشتغلون بالحرف والصناعات على سلامة عقائدهم فتعلّمهم الكلام ضرر محض وبلاء صرف يثير لهم شكاً لا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح[١١٦].

ومنفعة علم الكلام هي حراسة العقائد الحقّة هذه بأنواع الجدل. وحفظ العوام من تلبيسات المبتدعة، لأن معارضة الفاسد بالفاسد تدفعه، فلا ينتظر من هذا العلم كشف الحقائق، فليس في علم الكلام وفاء بهذا المطلب، ولعلّ فيه تشويش للعقل، وفتح باب الطريق إلى الخطأ[١١٧].

اما ضرر علم الكلام فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وازالتها عن الجزم والتصميم واعادة الأشخاص إلى الشك الذي كانوا فيه. وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة بحيث يشتد حرصهم على الاصرارعلى الضلال. ويستولي على قلوبهم عداوة الخصوم بالبغض والتعصب والهوى. ويلجأون إلى أنواع الحيل والتضليل والمغالطة والمناقشة لاثبات رأيهم، وقد يكرهون أن يظهر الحق للعيان خيفة أن يفرح خصومهم لكون الحق إلى جانبهم[١١٨].

ونادراً ما يترك هذا الضرر علم الكلام، ولذلك يرى الغزالي أنّه كالسم قليله مهلك وكثيره يجب أن يتلطف في أخذه. والصواب أن يكون في كل بلد عالم متكلم يدفع شبهة العوام دون أن يجعل هذا الدواء كالغذاء يطعمه كل الناس. وعلم الكلام كالفقه والتفسير والحديث يبذله للمتعلمين بلا حذر. فمثل هذا العالم ينبغي أن يخصص بثلاث صفات. احدهما: التجرد للعلم وطلبه وعدم الاشتغال بحرفة أخرى. والثانية: الذكاء والفصاحة. والثالثة: أن يكون في طبعه الصلاح والتقوى والديانة ولا تكون الشهوات غالبة عليه لكي لا ينخلع عن الدين بأدنى شبهة ولا يجد الفرصة للميل إلى الشهوة والفسق[١١٩].

وأورد أبو حامد الضرر الثالث لعلم الكلام في ذيل آفات المناظرة من كتاب العلم وحديثه هنا موجه على الاكثر إلى الفقهاء الذين يعقدون مجالس المناظرة ويزعمون أنها لاظهار الحق وإبطال الباطل ويتباحثون في مسائل الفقه الاخلاقية وخصوصاً الاختلافات الفقهية بين أبي حنيفة والشافعي. وهو صادق على مجادلات المتكلمين أيضاً. والغزالي الذي قضى عمراً في هذا الوادي وخبر آفاته فعاهد الله تعالى حين عزلته على قبر الخليل ألّا يناظر أحداً ينصح المتعلمين (نصيحة بالمجان) أن يتجنبوا هذا «السم القاتل» والّا يضيعوا ذوقهم الفقهي على الأقل ويتحدث بدقة في باب آفات المناظرة وبعين الطبيب فيعدد الامراض الواحدة بعد الأخرى ويصفها بقوله:

إن أهل المناظرة مصابون بأمراض كثيرة. فالغلبة والفصاحة والفطنة عند الخصوم يوجب الحسد. والمرض الآخر التكبّر لصيانة عز العلم، والحقد وتزكية النفس والنفاق. والابتعاد عن الحق والرياء ويتبعها كثرة الكلام والأنفة والغضب والطمع وطلب الرئاسة والاستحقار للناس، والمباهاة والأشر والغفلة وخروج الخشية والرحمة من القلب و... أمراض أخرى يبتلى بها الفقيه أو المتكلم المجادل فتهلكه[١٢٠].

قد تقول اليست هذه الرئاسات واللذات والنعم والمحروميات والغلبة ترغب الانسان بطلب العلم، نعم «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» ولكن لا تكن انت مثله ولا تحترق كالشمع لتضيء للآخرين، ولا كالابرة التي تكسو غيرها وهي عارية أو كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم. أو المسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع[١٢١].

لم يعارض فيض الكاشاني أبا حامد في أيٍّ من هذه الآراء. والمهم الذي فعله في هذه المباحث: أولاً: تقرير العقائد الحقة وفقاً للمذهب الامامي (فأوردها اكثر تفصيلاً من أبي‌حامد). والثاني اعتمد كتابيه **منهاج النجاة و علم اليقين** بدلاً من كتابي **الرسالة القدسية و الاقتصاد في الاعتقاد** للغزالي.

كما لم يوافق فيض أبا حامد في آرائه الاصولية فيحنما يقول الغزالي إن العلم باحكام القرآن والسنة والناسخ والمنسوخ والعام والخاص إنما يعرف من أصول الفقه يبادر فيض إلى القول: ليس كذلك، يجب أن يؤخذ تفسير القرآن، والعلم باحكامه من أهله الذين هم أهل بيت الرسول. ويرى أن

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

، اهتمام اهل السنة بعلم الأصول أنهم لم يجمعوا اكثر من
ة آلاف حديث عن الرسول. ولذلك فهم قاصرون عن
م على أكثر المسائل لفقدان النص فاضطروا للجوء إلى
أي والقياس والأصول التي حكموا فيها بالآراء وفرعوا
يعات لا يحتاج إلى شيء منها. حكموا فيها بالأهواء حتى
بينهم بتخالفهم العداوة والبغضاء فخيف على بيضة
سلام، فمنعتهم ملوكهم من الاجتهاد في الوقت الذي يقول
ه الله تعالى: ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾
ونس: ٣٦).

ويقول الامام علي(ع) يا معشر شيعتنا والمنتحلين ولايتنا
باكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن. ولما فات علماء
لعامة وصوفيتهم ما فات من معرفة الإمام والعلم بمسائل
لحلال والحرام والفرائض والاحكام كما ينبغي واستغرقوا في
بحر البدع والضلالة وتاهوا في بيداء الحيرة والجهالة...

ولذلك تركنا ذكر اكثر ما نقله أبو حامد عنهم في هذا الكتاب من أقوالهم وأفعالهم فيما يحتاج فيه إلى السماع (من المعصوم) اذ لا فائدة فيه ولا انتفاع[١٢٢].

لم يسع فيض لحذف كل أثر من آثار الأشاعرة من كتاب قواعد العقائد فقط بل انه بادر إلى ذلك في بقية كتاب احياء علوم الدين، فلم يوردها في المحجة البيضاء. واذا أوردها لم يستنكف عن الجواب عليها. ويجدر بنا الاشارة هنا إلى بعضها:

يذكر الغزالي أهل العجب في كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات فيقول في علاج العجب على الجملة: إن كبرك وعجبك وفرحك بالورع والعبادة وحسن الخلق والجمال والقدرة جائز اذا كانت من أعماله. أما اذا كان مملوكاً ومسخراً ومتكياً بالغير فلِمَ يعجب لعطائه ورفعته وكرامته. وصريح القول: هو أنك و قدرتك وارادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه. وما صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى. فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلب بمشاهدة اوضح من ابصار العين...[١٢٣].

إن معرفة هذه الحقائق يلقي في القلب الخضوع والحمد والخوف من سلب هذه النعمة بدل العجب. والله الذي يعطي من غير سبب ولا استحقاق لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب. فإذا كان اعطاء الحق بلا شرط فسلبه بلا شرط. والانسان وهو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الايمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه فيخاف من ذلك ويقول في نفسه: إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطي من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبقى معه عجب بحال[١٢٤].

إن القطعة الأخيرة تتحدث بوضوح عن جفاء المعشوق والمعبود وتدعو العاشقين من ذوي الوجوه الكالحة إلى الوفاء. مما يلزم ذوي الوجوه الجميلة بالوفاء. وتمثل لنا رؤوس الكثيرين المقطوعة من غير جناية على شرفة عرشه. وتفوح منها رائحة الأشعرية الشديدة. وتنبعث منها عدم العناية بالحسن والقبح العقليين واستبداد الله المطلق مما دفع فيضاً الكاشاني الذي كان يماشي أبا حامد بكل قدرته ويجدّ في سحق العجب إلى التردد هنا وحذف هذه القطعة من المحجة البيضاء. والاعجب منها الخبر العجيب الذي أورده أبو حامد في كتاب الخوف والرجاء في باب الخوف من الله: إن الله تعالى اوحى إلى داود عليه السلام: يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري، فهذا المثال يفهمك معنى الخوف من الله... والحاصل أن السبع لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي. فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم لقتلك. وإن خلاّك لم يخلك شفقة عليك وابقاء على روحك، بل انت عنده أخس من أن يلتف إليك حياً كنت أو ميتاً.. بل إهلاك ألف مثلك واهلاك نملة عنده سواء[١٢٥]. وهذه الرواية يجفو الطبع عنها إلى حد أن زين الدين العراقي قال في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من أخبار: لم أجد أصلاً لهذا الخبر وربما يريد الغزالي أن يقول انه من الاسرائيليات. فهو في اكثر المواضع حينما يقول «في خبر» يعني الأخبار الاسرائيلية. كما أن فيظا حذف هذا الخبر من المحجة. وهو في الحقيقة لا يستحق الذكر.

ومثله حديث الغزالي في باب رؤية الله في كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس. فهو وإن كان لا يعتبر محل الرؤية مهمًا وهي جديرة بالعاقل الذي يعرف متى يأكل الحبة ولا يسأل عن الكيل. إلّا أنه يقول: إن أهل السنة والجماعة حصلوا من ظواهر الشرع أنه يمكن رؤية الله بالعين. لتصدق عليه اطلاق لفظ الرؤية. ولكن الحقيقة غاية الكشف. وأينما حصل،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

فعين الرؤية بالعين أو غيرها. وسنة الله ان الانسان ما دام في الدنيا، لا يرى الله. وهذا معنى آية ﴿لا تدركه الأبصار﴾. ويورد فيض شرحاً موجزاً عن رؤية الله، وانه كما يجوز رؤيته في الدنيا تجوز رؤيته في الآخرة. وما لا يتيسر رؤيته هنا لا يتيسر هناك أيضاً، وإن كان من الممكن الانكشاف في الآخرة[١٢٦]. وبعد أن يورد بعض الروايات والشروح يعتبر الرؤية بالعين غير ممكنة[١٢٧]. وعلى كل حال فليس بين الغزالي وفيض اختلاف كبير في أصل حقيقة الرؤية. ذلك أن أبا حامد يرى أن رؤية الله حق وممكن بشرط «أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل مقصور مخصوص بجهة ومكان». وهو ما يقبله فيض ايضاً[١٢٨]. ويقول في كتاب قواعد العقائد ايضاً: وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم، جايز أن يراه الخلق من غير مقابلة. وكما جاز ان يعلم من غير كيفية وصورة جاز ان يرى كذلك[١٢٩].

ويدعو أبو حامد في كتاب التوحيد والتوكل بقوة إلى التوحيد. ويجسم للبصيرة قدرة الله المطلقة وعدم الانسان التام بما اكتسب من مهارة في فترة ممارسته لعلم الكلام. وحينما يتنسم في كلامه رائحة الجبر ويرى أنه يكدر معاني الطاعة والمعصية والثواب والعقاب يسعى إلى بيان معاني الاختيار بدفع شبهة الجبر. فيقسم الأفعال إلى ثلاثة أقسام: فعلاً طبيعياً، وفعلاً إرادياً وفعلاً اختيارياً. فخرق الانسان للماء عند وقوعه فيه، فعل طبيعي، وتنفسه فعل ارادي. وكتابته فعل اختياري، ويقول أبو حامد «وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة. ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور» والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي، والتنفس في معناه. لأن حركة الحنجرة لابد واقعة بعد ارادة التنفس ولكن الارادة ليست في اختيار الانسان أيضاً ولذلك لو قصد عين الانسان بابرة طبق الأجفان اضطراراً. ولا يقدر أن يتركها مفتوحة. اما الكتابة وهي فعل اختياري ويقال في تعريفها: إن شاء الانسان فعل وإن شاء لم يفعل. فلا فرق بينها وبين الفعلين المذكورين لأن الارادة هنا تبع للعلم. فالذي يقطع به الانسان من غير تردد كما يحصل اغماض العين مقابل الابرة، والذي لا يقطع به يبقى متحيراً حتى يختار أفضل الخيرين أو أهون الشرين. فإذا تميز الخير (وليس معنى الاختيار غير هذا) فارادته تتحرك جبراً واضطراراً نحو الخير. ثم تدفعه القدرة الخفية في الأجسام إلى العمل. فالانسان يتحدث عن الفعل الاختياري حينما لا يكون للعقل حكم فيه. وحينما يصدر الحكم ويعطي يحدث فعل الانسان اضطراراً. ويبدو أن مثل هذه الأفعال لا تختلف عن الافعال الانعكاسية كالتنفس واغماض العين ذاتا مقابل جرح الابرة أو النور الشديد. فالفعل هناك صادر عن ارادة مسبوقة بحكم العقل. وهنا حكم العقل حاضر وجازم. وفي الأماكن الأخرى ليس في اليد حكم حاضر. والنقطة المهمة انه لا حكم العقل ولا داعية الارادة المنبعثة عنه ولا الحس والقدرة المسخران للداعية ولا الحركة المسخرة للقدرة غير مقدرة في الانسان فالكل مقدر بالضرورة فيه، وهو محل ومجرى لهذه الأمور فقط. وبناء على هذا فإن معنى كونه مجبوراً أن جميع تلك العناصر المولدة للفعل فيه ليست منه. ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل وحدث الحكم أيضاً جبراً. فالانسان اذن مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض. وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين. لأنه جُبر على الاختيار. وليس هذا مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه. وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد. فإن ذلك في حق الله تعالى محال. وجميع الالفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلاّ على نوع من الاستعارة والتجوز[١٣٠]. يستمع فيض إلى هذا الحديث ولا يبدي اية حركة تنم عن معارضة ويورده جميعه في المحجة البيضاء، ويتفق مع أبي حامد اتفاقاً تاماً في هذه المسألة الكلامية المهمة.

إن جمال كلام أبي حامد وكماله و وضوح المعنى في ذهنه وزمانه. ولا سيما في هذه المعضلة العويصة الصعبة تدعو حقاً إلى التقريظ والثناء. فالانسان يفكر في نفسه ليت أبا حامد (أو محسن فيض) اختارا صفتي الجبر والاختيار للأفعال فقط. ولم يلبسا الفعل حلة من هاتين الصفتين حيث لا وجود له. فالعقل والارادة ليسا من افعال الانسان ليطلق عليهما لقب الجبر والاختيار وكذلك العين والأذن والكبد والامعاء، فهذه اعضاء جسمية وذانك أعضاء نفسية في الانسان. وإن ما يصدر بعد حكم العقل وحركة الارادة هو فعل الانسان. والفعل الارادي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

ينقسم إلى قسمين جبري واختياري والفعل الارادي الذي يصدر عن رضا هو اختياري والفعل الارادي الذي يصدر عن كره هو جبري، فقد يريد الانسان عملاً احياناً ويفعله مضطراً وعن غير رضى. ومثل هذا الفعل ارادي وجبري. صحيح أن بناء الانسان النفسي والجسمي ييسر له الفعل الاختياري. الا أن وضع اسم الجبر على وجود الانسان واعتباره لذلك مجبوراً على الاختيار ليس تمثيلاً صحيحاً للواقع. فهيكل وجود الانسان أولاً ليس فعلاً منه ليصدق عليه اسم الجبر. وثانياً حكم العقل وحركة الارادة وحدهما ليس اختياراً. والذي يصحح الاختيار هو رضا الانسان بالفعل ففي الافعال الجبرية يحكم العقل وتتحرك الارادة ليقوم الانسان بفعل ففي مقابل تهديد لص مسلح مثلاً، يرضى العقل وتسمح القدرة للانسان بأن يتخلى عن ماله ويعطيه للص عن غير رضا منه. وهذا العطاء مسبوق بحكم العقل والارادة، ولكنه ليس اختيارياً لأنه ليس عن رضا والله فاعل بالرضا ايضاً ورضاه عين ذاته. وبهذا المعنى مختار، والملائكة صاحبة اختيار بالفعل وان كان كل منها لا يتردد في الفعل. وقد أحسن أبو حامد في قوله: إن الفعل الاختياري المسبوق بالتردد والفعل الارادي بلا تردد يختلفان من حيث الماهية ولكنه يستنتج من ذلك أن كليهما جبري. بينما الاستنتاج الصحيح أن يقول: إن السبق بالتردد ليس شرطاً كافياً ولازماً ليكون الفعل اختيارياً والشرط اللازم والكافي رضا الفاعل فقط، وان ما يسمى أحياناً جبراً يجب تسميته ببيان فلسفي أدق وأوضح ضرورة. وبين الجبر والضرورة وبين الاختيار والصدفة فرق كبير. إن كل افعال الانسان بناءً على مبدأ العلة ضروريّة ولكن ليست جميعها جبراً. والفعل إن سبق برضا الفاعل اولم يسبق معلول علل، تجعله ضرورية بحدوثه. والاختيار والجبر يتساويان مع العلة. والأفعال الاختيارية والجبرية بحاجة متساوية إلى مبدأ العلة، كما أن الانتصار والانكسار في الحرب لهما سهم مساو من مبدأ العلة وهو مبدأ لا يحتاج أي منهما إلى أكثر منه. وربما أن عبارة (حرية الارادة) غير الصحيحة هي التي تسبب اكثر من غيرها الاضطراب والفوضى في بحث الجبر والاختيار. فبعض السلف والمعاصرين كانوا ولا زالوا يبحثون عن شيء من الحرية يهبونها للارادة ليحقق الانسان بهذه الحيلة أمله في الوصول إلى نوع من الاختيار، ولم يدر في خلدهم انه لا يوجد موجود يستطيع أن يتخلى عن مقومات وجوده وذاته، وإلّا ضاع مبدأ وجوده هذا. فكيف يمكن وجود حادث بدون علله الموجدة والموجبة، او لا تكون ارادةً مسبوقةً بعلمٍ ماهية. إن تجريد اي موجود من صفاته الذاتية ولوازم وجوده وانتظار معجزة منه عمل لا يخلو من العبث والعجب حقاً. ثم إن الاختيار ليس صفة أو عنصراً كالعقل والارادة في الانسان. فالاختيار وصف انتزاعي (ومعقول ثان) يتكوّن ويدرك من تناسق مجموع عناصر تكوين الانسان (العقل والرضا والارادة والقدرة...) والاختيار ليس بسبب فعل من الافعال. والانسان لا يفعل فعلاً بسبب الاختيار وإنما حينما تنتظم علل خاصة (ومنها الرضا) يصبح فعل الانسان اختيارياً وإلّا فلا.

اذن الفعل الاختياري ليس فعلاً بلا علة. وإنما فعل مسبوق بتناسق خاص لعلل خاصة فقط. والاختيار منتزع من مثل هذا التناسق والارادة والعقل وحدهما لا يوجدان اختياراً لأحد[١٣١].

ولابد من القول هنا أن حديث أبي حامد في كتاب التوحيد والتوكل كان خلافاً لما يتوقع بعيداً عن روح الاشعرية، وقريباً جداً من توحيد الله وموافقاً لطبع الحكماء الالهيين. وكذلك اراؤه في التوحيد والشكر في باب الشكر بكتاب الصبر والشكر، ولهذا كان فيض اقل تصرفاً في قسم التوحيد من هذا الكتاب، وكان نقده غالباً موجهاً إلى مضامين قسم التوكل والتي أوردنا أكثرها. ولنلق نظرة أيضاً إلى لحن الغزالي العدائي والكلامي في كتاب قواعد العقائد. فأبو حامد الذي كان يتلطف في الحديث في جميع أحياء علوم الدين وينفث في العبارات طراوة روح صوفيته ويضفي صفاء الصورة على غنى مادة الكتاب يتجلى في قواعد العقائد الذي تتمثل فيه الآراء الكلامية ضجره وعنفه اللذين كان يتصف فيهما ايام ممارسته لعلم الكلام القديم الصاخبة.. وينظر إلى المتافس بعين الخفة. ويعتبره من المبعدين من الله حيث يقول أبو حامد في الرسالة القدسية وهي الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد. وفي ايضاح استدلالي لعقائد أهل السنة في البحث عن صفات الله تعالى. وفي الاصل السادس (في أنه سبحانه متكلم)؛ «إنه سبحانه متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره، كما لا يشبه وجوده وجود غيره، والكلام بالحقيقة كلام النفس، وإنما الاصوات قطعت حروفاً للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والاشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم:

إن الكـلام لفي الفؤاد وانّـما جعـل اللّسان على الفؤاد دليلاً

واذا لم يعقله عقله ولا نهاه عن أن يقول: لساني حادث اما ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم. فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه، ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء، وان الباء قبل السين في قولك بسم اللّه، فلا يكون السين تأخر عن الباء قديماً، فللّه سبحانه سر في ابعاد بعض الحباد...»[١٣٢].

واذا ما خلفنا المباحث الكلامية نصل إلى نقاط من التوافق العجيبة بين فيض وأبي حامد. ففي احياء علوم الدين روايات وقصص لا يصدق الانسان أن يقبلها مولى محسن الكاشاني. ولكنه يراها في المحجة البيضاء ماثلة امامه. منها قصة أوردها أبو حامد في كتاب آداب الأكل من ربع العادات يقول فيها: إن أبا علي الروذباريّ اتخذ ضيافة، فأوقد فيها ألف سراج، فقال له رجل: قد اسرفت، فقال: ادخل. فكلُّ ما أوقدته لغير اللّه فأطفئه. فدخل الرجل فلم يقدر على اطفاء واحد منها. أو ينقل عن أبي علي الروذباري نفسه انه «اشترى احمالاً من السكر، وأمر الحلاويين حتى بنوا جداراً من السكر عليه شرف ومحاريب على اعمدة منقوشة كلها من سكر. ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها»[١٣٣]. وقد نقل فيض هاتين الحكايتين في المحجة دون تعليق رغم سخطه على الصوفية وآدابهم.

ومثلهماقصة برخ الأسود التي وردت في كتاب المحبة من ربع المنجيات في احياء علوم الدين ونقلها فيض في المحجة بدون نقد أو تعقيب. يقول أبو حامد: إذا دام الانس واستحكم اثمر للانسان نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع اللّه تعالى وقد يكون منكر الصورة. ولكنه محتمل ممن أقيم مقام الأنس وليس غريباً. وقصة برخ الأسود «إن اللّه أمر كليمه موسى ليستسقي لبني اسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين. فخرج موسى ليستقي لهم في سبعين ألفاً. فاوحى اللّه إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم... ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له... فعرفه موسى بنور اللّه فسلم عليه فقال: ما اسمك؟ قال: اسمي برخ... فخرج برخ خارج المدينة، وقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك. وما الذي بدا لك، أتعصّت عليك غيومك، ام عاندت الرياح عن طاعتك، أم نفد ما عندك؟... قال فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وانبت اللّه عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، قال: فرجع برخ، فاستقبله موسى فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف انصفني؟ فهمّ موسى به، فأوحى اللّه عز وجل اليه [دعه] ان برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات»[١٣٤].

وكذلك فإن حديث أبي حامد عن فوائد الجوع وقلة الأكل في كتاب كسر الشهوتين وسكوت فيض عنه لا يخلو كلاهما من الغرابة والنظر. فقد جاء ان الفائدة السادسة من فوائد الجوع، قلة النوم والقدرة على السهر ومن كثر شره به كثر نومه وفي كثرة النوم ضياع العمر. وفيه قساوة القلب وبلادة الطبع وفوت التهجد. ومن كثر أكله اما أن يغلبه النوم فلا يجد حلاوة العبادة، أو يقيم صلاة على النوم. والمتعزب اذا نام على شبع احتلم، ويحوجه إلى الغسل بالماء البارد فيتأذى، وربما لا يقدر على التهجد في الليل ثم يحتاج إلى مؤونة الحمام وربما تقع عينه على عورة في الحمام. فإن فيه أيضاً أخطاراً، وكل ذلك اثر الشبع وكثرة الأكل. وقد قال ابو سليمان «الاحتلام عقوبة»!![١٣٥].

ولكن للحب مقاما أسمى من العقل فما أن نصل إلى قصص الحب الطافحة بأنواع المناجاة حتى نرى أبا حامد وفيضا يتفقان في القول ويتشاركان في الشكر كما قيل:

آفـرين بر عشـق كلّ اوسـتـاد
صد هزاران ذرّه را داد اتّـحـاد

ونرى كأس فيض الذي يكره ذكر اسم المتصوفة في مواضع اخرى يطفح هنا بشهد المحبة الخالصة التي لا تتسع لنصف قطرة من سم العداوة. فيورد قصصاً وروايات لابـي تراب النخشي والحسن البصري والجنيد البغدادي. ويروق له بيتا أبي تراب في دلائل المحبين الصادقة فيتقلهما

لا تخدعنّ فللمـحـبّ دلائـل ولـديه من تحف الحبيب وسائل
منهـا تنعـمـه بمُـرّ بلائـه وسـروره في كل ما هو فاعـل

ثم يورد قصص المحبين في باب الرضا والايثار، وغلبة مراد

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

المحبوب على مراده (والترحيب ببلاء الحبيب) ليبين أن مرتبة العشاق الحقيقيين في الرضا والايثار افضل للعقل وأهنأ؛ كما يقول السعدي:

چو عشقی که بنیاد آن بر هواست
چنین فتنه انگیز و فرمانرواست
عجب داری از سالکان طریق
که باشند در بحر معنی غریق
شب و روز در بحر سودا و سوز
ندانند از آشفتگی شب ز روز
چنان فتنه بر حسن صورت نگار
که با حسن صورت ندارند کار

فيقول: «ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه. فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه فقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي. وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية فضربت بالقضيب وغنت:

علامة ذل الهوى على العاشقين البكاء
ولاسيما عاشق اذا لم يجد منتكى

فقال لها الفتى: أحسنت والله يا سيدتي. افتأذنين لي أن أموت؟.. فقالت: مت راشداً. قال: فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه، فحركناه فإذا هو ميت... وقال سمنون المحب: كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب. فاعتلت فجلس الرجل يتصلح لها حساءً فبينما هو يحرك ما في القدر، اذ قالت الجارية آه. قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل الرجل يحرك ما في القدر بيده حتى تساقطت أصابعه، فقالت الجارية: ما هذا؟ فقال الرجل هذا من أجل قولك آه. وحكي عن محمد بن عبدالله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت

ثم رمى بنفسه عن السطح فحملوه ميت. فهذا وامثاله قد يصدق به في حب المخلوق فالتصديق به حب الخالق أولى. لأن البصيرة أصدق من البصر وجمال الحضرة الربوبية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال[136]؛ كما قال مولانا جلال الدين الرومي:

هركسی پیش کلوخی سینه چاك
كان كلوخ از عشق آمد جرعه ناك
باده خاك آلودتان مجنون كند
صاف اگر باشد ندانم چون كند

ختمنا بالحب والصداقة ختم الله امرنا بالحب والصدق والحمد لله أولا وآخراً.

المصادر والهوامش:

١ـ أوردتُ بالتفصيل المواضع التي اقتبس المولوي فيها من الغزالي. فالرجاء الرجوع إلى مجلة «المعارف»، رسالة الغزالي الخاصة. الدورة الأولى العدد ٣. آذر ـ اسفند ١٣٦٣ طهران. نشرة مركز نشر دانشگاهي.
٢ـ احياء علوم الدين، مقدمة المؤلف، المجلد الأول.
٣ـ المحجة البيضاء، مقدمة المؤلف، المجلد الأول.
٤ـ ن.م، مقدمة المصحح، المجلد الأول، ص ٣١.
٥ـ ن.م، ص ٢٦ ـ نقلاً عن «لؤلؤة البحرين».
٦ـ نهج البلاغة.
٧ـ المحجة، مقدمة المؤلف، ص ٢.
٨ـ ن.م.
٩ـ دار نقاش طويل حول نسبة كتاب «سر العالمين وكشف ما في الدارين» إلى الغزالي. فارجوه جلال همائي بعد أن أورد نماذج من الكتاب في «غزالي نامه» ذهب إلى أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون لعالم كالغزالي (انظر إلى غزالي نامه، مكتبة فروغي، ص ٢٧١). وعبدالرحمن البدوي أيضاً لا يرى هذا الكتاب من الغزالي بعد فحص دقيق. راجع: مؤلفات الغزالي لعبدالرحمن البدوي.
١٠ـ احياء علوم الدين، مقدمة المؤلف، المجلد الأول.
١١ـ المحجة البيضاء، مقدمة المؤلف، المجلد الأول.
١٢ـ ن.م، المجلد الأول، كتاب قواعد العقائد، ص ٢٨٥.
١٣ـ ن.م، ص ٢٣٥.
١٤ـ ن.م، ج١، كتاب اسرار الطهارة، ص ٢٨٥.
١٥ـ ن.م، ج٦، كتاب ذم الغرور، ص ٣٤٠.
١٦ـ ن.م، ج٦، كتاب ذم الجاه والرياء، ص ١٣٠.
١٧ـ ن.م، ج٣، كتاب آداب الكسب والمعاش، ص ١٤٧.
١٨ـ ن.م، ج٦، كتاب ذم الجاه والرياء، ص ١٣٠.

نقل ابن الجوزي الحنبلي هذا الحديث عن الغزالي في تلبيس ابليس وانتقده انتقاداً فقهياً. ونقل الشيخ عباس القمي هذا النقد في سفينة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

البحار، وتجاوزه بدون رد ويبدو أنه لم يجد حاجة للدفاع. ورغم هذا فإن فقيهين أحدهما شيعي والثاني سني هما فيض وأبو حامد شهدا على جوازه الفقهي. انظر إلى سفينة البحار، المجلد الثاني، مادة: غزل.

١٩ـ المحجة، ج٦، كتاب ذم الغرور، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

٢٠ـ ن.م، ص ٣١٨.

٢١ـ ن.م، ج٦، كتاب ذم الغرور، ص ٣٣١.

٢٢ـ ن.م، ج١، كتاب العلم، ص ٥٧.

٢٣ـ ن.م، ج١، كتاب اسرار الطهارة، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. حذف فيض حديث عمر وأبي هريرة الذي أورد فيه الغزالي بعض المواضيع.

٢٤ـ ن.م، ج١، كتاب العلم، ص ٨١ ـ ٨٢. حذف فيض في المحجة اسم الحسن البصري الذي ورد في احياء علوم الدين وذكر في موضعه عبارة بعض السلف وأورد نفس الحديث. وهذا هو اسلوبه المستحسن فحينما أعجبه حديث ولم يرض عن صاحبه اكتفى بحذف الاسم، ولم يستغن عن الحديث.

٢٥ـ احياء علوم الدين، ج٥، كتاب رياضة النفس، ص ٦٠.

٢٦ـ المحجة، ج٥، كتاب رياضة النفس، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

٢٧ـ تلبيس ابليس، جمال الدين ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٦٨ هـ ص٢٥٣. ولابد من الاشارة إلى أن ابن الجوزي اقتبس اسم كتاب تلبيس ابليس من الغزالي. فقد وعد الغزالي في كتاب شرح عجائب القلب من الربع الثالث من كتاب احياء علوم الدين أن يصنف كتابا بعنوان «تلبيس ابليس» يتحدث فيه عن مكائد الشيطان بقوله: «ولعلنا ان أمهل الزمان صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه تلبيس ابليس، فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد...» وقد ذكر عبدالرحمن البدوي تلبيس ابليس في مؤلفات الغزالي واعتبره من مؤلفات الغزالي نفسه بها.

٢٨ـ تلبيس ابليس، ص ١٦٦.

٢٩ـ المحجة، ج٥، كتاب آفات اللسان، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

٣٠ـ إحياء علوم الدين، كتاب آفات اللسان، الآفة الثامنة.

روى الامام الخميني، قدّس سرّه، عن شيخه المرحوم شاه آبادي «أن شيخنا العارف روحي فداه، يقول: لا تلعنوا أحداً ولو كان كافراً ولا تعلمون أنه مات على الكفر، ما لم يطلع معصوم عن حاله بعد موته...». والظاهر أن هذا الحديث نقل برمته عن حديث أبي حامد الغزالي. أنظر إلى رسالة لقاء الله، ص٢٥٩. (نهضت زنان مسلمان).

٣١ـ المحجة البيضاء، ج٥، كتاب آفات اللسان، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

٣٢ـ ن.م، ص ٢٥٧.

٣٣ـ ن.م، ج ٤ كتاب الأمر بالمعروف، ص ١١٢.

٣٤ـ احياء علوم الدين، ربع العادات، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب الثالث، في المنكرات المألوفة في العادات.

٣٥ـ ن.م، الباب الرابع، في أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر.

٣٦ـ المحجة، ج٤، كتاب الأمر بالمعروف، الباب الرابع، ص ١١٢.

٣٧ـ ن.م، الباب الثاني، ص ١٠٨.

٣٨ـ ن.م، الباب الرابع، ص ١١٣.

٣٩ـ ن.م، الباب الثاني، ص ١١١.

٤٠ـ احياء علوم الدين، كتاب الأمر بالمعروف.

٤١ـ ن.م، الربع الأول، كتاب العلم، الباب الثاني.

٤٢ـ ن.م، الربع الثالث، كتاب ذم الدنيا، (بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأصنافها)، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

٤٣ـ ن.م، الربع الرابع، كتاب المراقبة والمحاسبة، (بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)، ص ٤٠١.

٤٤ـ ن.م، الربع الأول، كتاب العلم، الباب الثاني، ص ١٧.

٤٥ـ ن.م، ص ١٨.

٤٦ـ ن.م، ص ١٨ ـ ١٩.

٤٧ـ ن.م، ص ٢١.

٤٨ـ ن.م، ص ٢٥.

٤٩ـ ن.م، الباب الثالث، ص ٤١.

٥٠ـ ن.م، ص ٤١.

٥١ـ ن.م، الباب الخامس، في آداب المتعلم والمعلم، ص ٥٥.

٥٢ـ ن.م، الربع الثاني، كتاب آداب السفر، الفصل الثاني من الباب الأول، ص ٢٥٥.

٥٣ـ ن.م، كتاب الحلال والحرام، الربع الثاني، الباب الثاني، ص١١٧.

٥٤ـ ن.م، كتاب العلم، الباب الثاني، ص ١٨ ـ ١٩.

٥٥ـ المحجة، ج١، كتاب العلم، ص ٥٦.

٥٦ـ ن.م، ص ٥٩ ـ ٦٠.

٥٧ـ حياء علوم الدين، ج١، كتاب العلم، الباب الثاني.

٥٨ـ ان التغافل عن النظر إلى حياة عامة الناس (ما عدا اليسير من النواعين).

من الأفكار الجريئة الواعية التي تلقي ظلاً ثقيلاً على كثير من تحاليل الغزالي لحياة الانسان السياسية والاجتماعية في احياء علوم الدين. فنظرته التي تتسم بالتعالي والترحّم والأفضلية إلى حياة الانسان المادية والاجتماعية، وعدم التعرض له، واستساحة الاعذار له، والانطواء على النفس والاهتمام بها، والتخلي عن فكرة تطوير العالم والطلب من الآخرين اصلاح شؤونه المعيشية والادارية، وعدم التأثر لأوضاع الناس المضطربة والقبول برؤية الدنيا مليئة بعبدة الحكم، والنظر خلسة وبخبث إلى محمولات الآخرين من السرجين والحطب،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

من اجل الحمام ليستحم فيه بنفسه، كل ذلك نابع من نظرة الغزالي الكلامية وعلمه الاجتماعي. وهو ما تعلمه مولوي من الغزالي جيداً فنظم فيه اشعاراً، ولكنه قصر في نظرته النفسية عن نظرة الغزالي الاجتماعية. يمكنك الرجوع إلى رقم ١ من هذا الهامش.

٥٩ـ انظر الى بحث للربا في المحجة البيضاء، كتاب آداب الكسب والمعاش، ج٣، ص ١٥٩ ـ ١٦٢.

٦٠ـ الغزالي، المنقذ من الضلال، ترجمة صادق آئينه وند، الشك والمعرفة، ص٤٩، (تهران، امير كبير، ١٣٦٠ش).

٦١ـ احياء علوم الدين، ج٢، كتاب آداب السفر، ص ٢٥٠.

٦٢ـ ن.م، ج٢، كتاب آداب العزلة، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

٦٣ـ ن.م، ج٣، كتاب عجائب القلب، ص ١٩.

٦٤ـ ن.م، ص ٢٠.

٦٥ـ الغزالي، ميزان العمل، ص٢٢٢، (تحقيق وتقديم الدكتور سليمان دنيا، مصر، دار المعارف، ١٩٦٤م).

«حتى في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي سلوك هذا الطريق شاورت متبوعاً مقدماً من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن، فمنعني وقال السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكليّة.... ثم تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب... فلا تزال تقول: اللّه اللّه...».

٦٦ـ احياء علوم الدين، ج٢، ربع العادات، كتاب آداب السفر، ص ٢٥٠.

٦٧ـ ن.م، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

٦٨ـ ن.م، ج٢، ربع العادات، كتاب الحلال والحرام، الباب السابع، في مسائل متفرقة، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

٦٩ـ ن.م، ج٣، ربع المهلكات، كتاب ذم الغرور، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٧.

٧٠ـ احياء علوم الدين، كتاب العلم، ربع العادات، بيان ما بدل من الفاظ العوام.

٧١ـ المحجة البيضاء، ج٦، كتاب ذم الغرور، ص ٣٣٨.

٧٢ـ ن.م، ج٥، كتاب كسر الشهوتين، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

٧٣ـ ن.م، ج٨، كتاب المحبة والشوق والرجاء والانس، ص ١٠١.

٧٤ـ ن.م، ج٧، كتاب الفقر والزهد، ص ٣٧٠.

٧٥ـ انظر إلى محسن فيض الكاشاني، كتاب بشارة الشيعة، ص ١٥٠ (تهران ١٣١١).

٧٦ـ احياء علوم الدين، ربع المنجيات، كتاب الصبر والشكر، ص٧٥.

٧٧ـ المحجة البيضاء، ج١، كتاب العلم، ص٨٧.

٧٨ـ ن.م، ج٥، كتاب رياضة النفس، ص ١٢٨ ـ ١٤٠.

٧٩ـ ن.م، ج٧، كتاب الفقر والزهد، ص ٣٦٤، واحياء علوم الدين، كتاب الفقر والزهد، ربع المنجيات، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

٨٠ـ احياء علوم الدين، الربع الرابع، كتاب الفقر والزهد، ص٢٢٥.

٨١ـ المحجة، ج٧، كتاب الفقر والزهد، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

٨٢ـ احياء علوم الدين، كتاب الفقر والزهد، ص ١٩٥.

٨٣ـ ن.م، ص ٢٠٣؛ والمحجة، ج٧، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

٨٤ـ احياء علوم الدين، كتاب الفقر والزهد، ص٢١٩؛ والمحجة، نفس الكتاب، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٨٥ـ المحجة، ج٥، كتاب كسر الشهوتين، ص ١٦٣.

٨٦ـ ن.م، ص ١٦٨. لم يتطرق الغزالي في احيائه إلى طحين التين وأورد القسم الثاني من القصة.

٨٧ـ احياء علوم الدين، ربع المهلكات، كتاب كسر الشهوتين، ص ٩٣ ـ ٩٤.

٨٨ـ المحجة، ج٥، كتاب كسر الشهوتين، ص ١٧٥.

٨٩ـ ن.م، ص ١٨٠.

٩٠ـ احياء علوم الدين، ربع المهلكات، ج٣، كتاب كسر الشهوتين، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

٩١ـ ن.م، ربع المنجيات، كتاب الفقر والزهد، (بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)، ص ٢٣٠ ـ ٢٤٠.

٩٢ـ المحجة، ج٧، الفقر والزهد، ص ٣٦٥.

٩٣ـ احياء علوم الدين، كتاب رياضة النفس، ص ٧١.

٩٤ـ ن.م، كتاب المحبة، ص ٣٥٨.

٩٥ـ المحجة، ج٧، كتاب التوحيد والتوكل، ص ٤١٦.

٩٦ـ ن.م، ص ٤١٨.

٩٧ـ احياء علوم الدين، كتاب التوحيد والتوكل، ربع المنجيات، ص٢٦٨.

٩٨ـ احياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٦٩.

٩٩ـ المحجة، ج٧، كتاب التوحيد والتوكل، ص٤١٩.

١٠٠ـ احياء، كتاب التوحيد والتوكل، ص٢٧٠.

١٠١ـ المحجة، ج٧، ص ٤٢١.

١٠٢ـ احياء، كتاب التوحيد والتوكل، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

١٠٣ـ ن.م، ص ٢٧٣.

١٠٤ـ المحجة، كتاب التوحيد والتوكل، ج٧، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.

١٠٥ـ احياء، كتاب التوحيد والتوكل، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

١٠٦ـ المحجة، كتاب التوحيد والتوكل، ص ٤٢٣.

١٠٧ـ احياء،كتاب التوحيد والتوكل، ص٢٨١ ـ ٢٨٣.

١٠٨ـ ن.م، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

١٠٩ـ ن.م، ص ٢٨٠.

١١٠ـ احياء، كتاب العلم، ربع العبادات، ص ٢٢.

١١١ـ المحجة، ج١، كتاب العلم، ص٧١ ـ ٧٢.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]

١١٢ـ احياء، كتاب العلم، ص ٢٢ ـ ٢٣.
١١٣ـ ن.م، ص ٣١.
١١٤ـ ن.م، كتاب قواعد العقائد، ربع العبادات، ص٩٧.
١١٥ـ احياء، ربع المنجيات، كتاب الخوف والرجاء في معنى سوء الخاتمة، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
١١٦ـ ن.م، قواعد العقائد، الفصل الأول والثاني.
١١٧ـ ن.م، ص ٩٧.
١١٨ـ ن.م.
١١٩ـ ن.م، ص ٩٩.
١٢٠ـ احياء علوم الدين، كتاب العلم، الباب الرابع.
١٢١ـ ن.م، الباب الخامس، بيان وظائف المرشد المعلم، ص ٥٥؛ وأيضاً الباب الرابع، ص٤٨.
١٢٢ـ المحجة، كتاب العلم، ج١، ص ٤٩ ـ ٥٣.
١٢٣ـ احياء علوم الدين، ج٣، كتاب ذم الكبر والعجب. ص٣٧٢.
١٢٤ـ ن.م، ص ٣٧٤.
١٢٥ـ احياء، كتاب الخوف والرجاء، ربع المنجيات. ص١٥٩.
١٢٦ـ المحجة، ج٨، كتاب المحبة، ص ٣٥.
١٢٧ـ ن.م، ص ٤٢.
١٢٨ـ احياء، كتاب المحبة، ص ٣١٣.
١٢٩ـ ن.م، ج١، قواعد العقائد، ص١٠٨.
١٣٠ـ ن.م، ج٤، ربع المنجيات، كتاب التوحيد والتوكل، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
١٣١ـ أوردت بحثاً وافياً عن الاختيار والجبر في كتاب باسم «علم الاخلاق» راجياً نشره قريباً.
١٣٢ـ احياء، ربع العبادات، كتاب قواعد العقائد، الفصل الثالث،ص١٠٩.
١٣٣ـ المحجة البيضاء، ج٣، كتاب آداب الأكل، ص٤٩.
١٣٤ـ ن.م، ج٨، كتاب المحبة، ص ٨١ ـ ٨٢.
١٣٥ـ ن.م، ج٥، كتاب كسر الشهوتين، ص ١٥٨.
١٣٦ـ ن.م، ج٨، كتاب المحبّة والشوق والرّضا والأنس، ص٩٣ ـ ٩٤.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1411.2.12.5.7]